ديلمون

رواية

أسامة أحمد خوجلي

اسم الكتـاب : ويتـــــلغـــــون

التأليـــــــف : أسامة أحمد خوجلي

إخــراج فنــــي : هيـــام فهيــــم

الطبعـــــــة : الأولـــــــــــــى

رقم الإيــــداع :

الترقيم الدولي :

الناشـــــــــر : دار زحمة كُتّاب للنشــــــر والتوزيع

١٥ش السباق – مول المريلاند – مصـــر الجديدة - مصر

Facebook : دار زحمة كتاب للنشر

Email : za7ma-kotab@hotmail.com

Tel : 002 012051100596

ويتلغون

أسامة أحمد خوجلي

"*ويتلغون*"، لرُبما تكون في نظرِ الكثير مجرد حانة !، يقضون فيها أمتعُ الأوقاتِ، ولكنها بالنسبةِ لي فهي ملجئي.

بدأتْ قصتي معها منذُ مدةٍ طويلة، لها طابعٌ ساحر، فهي أشبه بأن تصنّف لأصحاب الطبقةِ الأُرستقراطية، لها إضاءة خافتة تبدو ملهمة للقراءة - أو ربما لعازف البيانو الذي اعتدتُ رؤيته هنا، تصميمها الداخلي مستوحى من السبعينيات، لكلّ طاولة خمسة مقاعد.

أُعجب بنوعِ الموسيقى التي تُعزف هنا، دومًا تكون هادئة، في مرةٍ أسمعُ الجاز وتارة سيمفونية بيتهوفن.

أتذكرُ ليالي الماضي الباردة...

كانت ليلتي باردة، فأنا آتي للحانة عندما تُريد مشاعري الحديث، جالسةُ في مقعدي المُعتاد جوارِ النافذة، مرتديةً بنطالًا من الجينز وسترة شتوية سوداء اللون وحذائي الأبيض، كانت تلك اللية مؤلمة للغاية، كنتُ أشعر بأن روحي خاوية وهذا أمرُ صعب، فكيف لي أن أواجه معارك الحياة وأنا محطمة ؟ !، لكنني مدركة بأنه بقدرِ ما هنالك لحظاتٌ حزينة، أيضًا تُوجد لحظات سعيدة، ولنْ تدرك ذلك ما لم تمضِ في حياتك.

في تلك الليلة، قررتُ أن أُحدث تغيرًا في الحياة، طيلة حياتي مارستُ المحاماة إلى أن أرهقتني، كلّ تلك القضايا أشعرتني بحياة لم أعرفها من قَبل، وكأنّ عالمي مختلف عن الآخرين، لم أخسر قطْ أية قضية، كنتُ وما زلتُ وسأظل منتصرة... هكذا طننتُ إلى أن اصطدمتُ بنفسي، في ذلك اليوم خسرتُ قضيتي الأخيرة، كانت أمام الاكتئاب... أجل فهو لا ينتهي أبدًا وللأسف قد تمكّن منّي.

في كلّ مرة أكون في "ويتلغون" أتذكر تلك الأمسيات... أمسياتٌ لطالما كنت أنتمي لها وكأنّي وُلدت من جُنح الليل، فبعد كل قضية تنتهي أعود هنا، أرتشف قهوتي وكأنّها نهايةُ معركتي.

تعُود بي الذاكرة إلى ليلةٍ من الماضي، لم تكن ليلة هادئة بل قارسة... هكذا يُعرف عن شتاءٍ "هاليفاكس"، مدينتي أنا... وحدي.

كانت هنالك امرأة تتردد دومًا إلى "ويتلغون" وحيدة، وكُنت أتعجبُ من ذلك، فكيف لامرأة مثلُها بأن تقضي الليل وحدها.

امرأة تبدو في منتصف الثلاثين، كان شعرُها حريريًا وكأنه موجِ الليل المصطدم بالصخور، كم هي ناصعةُ البياض، لوهلةٍ ظننتُ وكأن القمر قد اقتبس لونه منها، تمتلك رموشًا أشبه بأميراتِ القرن الماضي... لم تكن مجرد امرأة.

في كل مرة تأتي تطلب الطلب نفسه، كوبًا من القهوة الساخنة، إنها امرأة تهوى الليل، لا أراها سوى في ساعاتِه الأخيرة.

تُريد روحي بأن نتعرف عليها... هكذا أخبرتني.

في مرةٍ ما انتظرتُ خروجها من الحانة، لم ألحظ هطول المطر إلا عندما خرجت.
كانت تنظُر إلى السماء وكأنها تخاطبُ تلك القطرات، تُلامس وجهها برفق، اقتربتُ منها كي أُلقي التحية، توقفت عن الحديث مع المطر، لم تكُن تلك قطراتِ المطر بل... دموع، تمّعنتُ النظر إليها، كانت منهكة في البكاء، طننتُ وكأن العالم يسكن جسدها، إن مشاعر الحزناء تمرُّ عبرها.

ذهبتْ مسرعة من مكانها، وتبعتُها، كانت تبتعد عني كثيرًا، كورقةْ خريفٍ أبعدها نسيمُ الهواء، لقد اختفت من أمامي. نظرتُ حولي وجدتُها قد توقفت عند فندق للعشاق!.

كان فندق العشاق يقع عند شارعٍ ضيق، كان مزيّنًا بلافتة نيون مبهجة، يُسمى "فيرونا"، إنه إيطالي كما يبدو، كان حوله كثيرٌ من النساء... بائعاتُ الهوى، تلك التسمية صعبةٌ على امرأة مثلي، متى سيدرك هذا العالم بأن المرأة أكثر من مجرد جسد؟.

لم أدخل للفندق، هنالك شيءٌ بداخلي شعور بالخوف، ظللتُ أنتظرها لعلها تخرُج، لم يطل الانتظارُ طويلًا، خرجت من الفندق بشكلٍ مختلف، راسمةً على وجهها ابتسامة... إنها مصطنعة، كانت تبكي قبل لحظاتٍ فقط... هكذا كنت أردد داخلي.

ركِبت عربة من الطرازِ الفاخر داخِلها رجلٌ وامرأة وكأنها قدِمت من العصر الفكتوري، تحركت من ذلك الشارع تاركةً عقلي في حيرة من أمره.

عُدت إلى "ويتلغون"، أدركتُ أمرًا واحدًا في تلك الليلة، أن هذه المرأة ليست سعيدة، لكن لماذا صنعتْ تلك الابتسامة؟، لربما هو أمرٌ لا يكترثُ له أحدٌ قط، لكنني امرأة فضولية، أريد الإجابة على كل تلك التساؤلات التي اقتحمت رأسي.

كانت حزينة عند باب الحانة وذلك الأمر حرّك شعور الحزن الذي تعايشتُ معه لسنين طويلة، لكن لماذا لا تتحدث مع أحد؟، حتى عندما جلست في مقعد العربة لم تتفوه بأي كلمة، كم هو صعب حينما يكون صمتك ثقيل - وكأن صخرةً قد حطّت على صدرك.

أدركُ جيدًا ماذا يعني الصمت، فلطالما كان ملاذي في هذه الحياة، صمتُ عندما غادرنا منزلنا القديم، وسكنتُ في منزل يخيفني، صمتُ عندما أخبرني أصدقائي بأنني لا أشبههم، صمتُ عندما أبكيتُ شخصًا أحبني ولم أتأسف له... هذه أنا، امرأة تمضي في حياةٍ لا تُشبهها.

لم تغادرني تلك المرأة لليالٍ عديدة، تركتُ عملي وكنت أذهب إلى "ويتلغون" على أملٍ مني لرؤيتها، لكن ذلك لم يحدث قط.

مضتْ الأيام، كنتُ قد صرفتُ النظر عن تلك المرأة.

في ليلة ما، حيث ما زال مطر الشتاء يتساقط، في محاولةٍ منه ليخبرنا بأن الحياة جميلة،استقليتُ القطار المتجه إلى منزلي، كان يومي مُرهقًا فقد ظللتُ أعمل في المكتب لساعاتٍ متأخرة، توقف القطار عند محطتي، شعرتُ بالدوران بدأ لي وكأن الموت يُحاصرني، جسدي يتعرق، ملمسُ جسدي أصبح باردًا، الرؤية ليست بواضحة... سقطتْ.

استيقظتُ بشعورٍ مؤلم، أحسستُ رأسي... لا أعلم ماذا أصابني لكن يبدو وكأنني ارتطمتُ بشيء ما، نظرتُ حولي بدهشةٍ اعتلت وجهي... إنه منزلي!، كيف حدث ذلك؟، كل ما أذكره نزولي من القطار ثم...

تجولتُ في منزلي، كنتُ أريد أن أتحدث مع عائلتي، ناديتُ على زوجي مايك لكنه لم يكن موجودًا، وكذلك ابنتي جين وصغيري دريك.

كان منزلي مكوّنًا من طابقين، لكن أين هم؟، لماذا يُصعب عليّ رؤيتهم، نظرتُ من خلال النافذة... إنه الصباح، حتمًا ذهب الجميع إلى أعمالهم.

عدتُ إلى غرفتي، في استعدادٍ للذهابِ إلى العمل، كنتُ أمشطُ شعري وأنا أشعر بالذهول، نظرتُ إلى المرآة، كانت تجلسُ في مقعدي تلك المرأة، التفتُ لها لكني لم أجدها!، أعدتُ النظر إلى المرآة أجدها تجلسُ وعندما أديرُ ظهري مرة أخرى لا أجدها، ظللتُ أنظر إليها عبر المرآة، تحدق إلي دون أن تتفوه بشيء... بدت كالسراب تمامًا.

يا إلهي ماذا حدث الليلة الماضية؟

تعايشتُ مع تلك الحادثة وكأنها جزءٌ ارتحل سريعًا، أصبحتُ أستيقظُ عند منتصف الليل من كل يومٍ، الأمرُ أشبه بكونه قد فُرض علي وليس روتينًا - كأن هنالك شعور يُخبرني بذلك.

كم هذا مُفزع للغاية، أن تستيقظ وأنت متجمد في مكانك، أصبحت مشاعري مضطربة، وقد كرهتُ الليل، إنه يُعيد إليَّ ذكريات الماضي... لقد تكبّدت فيه جراح تأبى أن تلتئم، وهذا مؤلم عندما تنفرد بنفسك ليلًا، كأن تلك الذكريات تتدافع من كل حِقبة في حياتي، إنها لا تُدرك حجم الألم الذي خلفته في حياتي.

لطالما كُنت أبغض الوحدة فهي موحشة، أتذكر كيف عاش زوجي السابق حياته... وحيدًا، كرّس حياته للآخرين، لكنه ظلّ وحده في فراش الموت، كان شخصًا يضيف إلى حياتي البهجة... لقد جعلني امرأة جيدة، لقد سقطتُ كثيرًا... هنالك أيام لم أعرف كيفية النهوض منها، لكنه كان يشدّني نحو الأعلى، للأسف غادر العالم وحيدًا.

قابلتُ تلك المرأة مجددًا، في حديقة المدينة العامة، حاولتُ مرة أخرى أن أحادثها، لكنها اختفت، أشعر وكأنني وحدي أراها !، أردتُ أن أخبرها لماذا تأتين إلى أحلامي ؟.

حياتي مرتبطة بها على ما يبدو، أظن بأن حياتي على وشك بأن تأخذ منحنى جديدًا- أو بتعبيرٍ آخر عليّ أن أتعايش مع كابوس تلك المرأة.

عندما أخبرت عائلتي بها، اتفقوا على أنني مريضة!، للأسف في كثيرٍ من الأحيان لا تخرُج مننا الكلمات المناسبة، نظرًا إلى اللحظة التي نعيشها، فوافقتُ على ما تقوله عائلتي.

في مساءِ اليوم التالي ذهبتُ إلى فندق "فيرونا"، لعلني أجدها، كان من الداخل ذَا حلّة مبهرة، وكأننا في أواخر القرن العشرين، اتجهتُ إلى مكتب الاستقبال، كان الرجل الذي خلف المنضدة يدخّن بشراهة... في محاولة منه على نسيان ذكرى ما على ما يبدو، وصفتُ له شكل المرأة، لكنه أخبرني بأنه مستجدٌ في هذا العمل، شعرتُ بانزعاج للغاية.

فور عودتي من الفندق، تلقيتُ نصيحة بشكلٍ أثار دهشتي، فبعد أن عدتُ إلى المنزل، تفحصتُ صندوق البريد، فبجانب الفواتير كان هنالك ظرف أبيض لديه رائحة زكية... كان محتواه

"مساء الخير،

سيدة كاثرين، أرجو أن تكوني بخير، إن الزهرة التي تمسكينها مميزة، أتدرين لماذا؟، لأنني اقتطفتُها من بين الصخور، لكِ أن تتخيلي، كيف لها أن تنمو في هذه الحياة القاسية ما لم تكن مميزة، أنتِ مميزة.

مجرد امرأة".

رميتُ كل الرسائل من بين يديّ وركضت مسرعة وكأنني... هاربة من الموت، استوقفني السور العازل بيني وبين البحر، كنت متعبة وخائفة، لا أعلم لماذا شعرتُ بأن تلك الرسالة من تلك المرأة!، كنت أتنفس بصعوبة، إن روحي تحاول جاهدةً أن تغادرني.

ألقيت نظرة حولي، لم يكن هنالك شخص يتبعني، لقد أرهبتني... جلستُ على إحدى المقاعد، قضيتُ بعض الوقت أستمعُ لقصة شخصٍ بائس يرويها موج البحر.

شعرتُ بأنه لا أفكار لدي، مجرد جسد يحتوي ذاته، أحسستُ بلهفة هواءٍ بارد، كأن السماء ستمطر، لقد ارتعشتُ، أغمضتُ عينيّ لعل هذه اللحظة تمضي سريعًا، عندما فتحتها وجدت جانبي امرأة... أجل إنها هي!، تضاربت أنفاسي حينها، كنا نحدق في بعضنا البعض، لم أعلم أهي حقيقة أم خيال؟.

تبسمت في وجهي، كانت مختلفة، لا تشبه تلك المرأة التي لطالما حفظتُ تفاصيل وجهها.

مدّت يدها ناحيتي واستطردت: ((أنا كيت، لطالما أردت الاقتراب منكِ سيدة كاثرين)).

أجبتها بتردد: ((سعيدة بمعرفتكِ سيدة كيت)).

- لا بد من أنكِ قد قرأتِ رسالتي، لذلك أنتِ هنا.

عمّ بيننا صمت ثم أكملتْ: ((أنتِ محامية.. عظيمة، لقد حضرتُ لكِ العديد من المرافعات)).

- أنتِ تعلمين عني الكثير!، أنا لا أعرفكِ حقًا، فقط ذات يومٍ تبعتُك إلى أن توقفتِ عند فندق "فيرونا"، اعذريني على ما سأقوله، هل أنتِ بائعة هوى؟.

كان شعرها يتطاير جراء الهواء ظلت تنظر للبحر، تريدُ أن تبعد نظرها عني: ((أجل سيدة كاثرين... أنا كذلك، في الواقع يعتريني الحزن لقول ذلك، يُقال إن الغاية لا تُبرر الوسيلة، لا تهتمي لأمري، لا أحد يستطيعُ فهمي... في نظر الكثير من الناس فأنا مجرد.... جسد)).

شعرتُ بالخيبة في وجهها: ((يوجد الكثير من الوظائف الجيدة، لكن ألم تحصلي على التعليم الكافي؟)).

كانت عينيها قد غُمرت بالدموع، لكنها تشبّثت بقوة، كانت سيدة لا ترضى بالضعف، أجابتني: ((ليس لدي عائلة... كنت فتاة ميتم، لا أعلم حتى ما اسمي الذي وُلدت به، لا أعلم أوُجدت في هذا العالم بسبب الحب أم زواجٍ فاشل؟، أو ربما حالة اغتصاب)).

لم تُكمل حديثها معي، فقط مضت في طريقها، كان حديثها معي مرهقًا لها، حياتنا لا تختلف كثيرًا لربما في نقطةٍ ما نحن نتشابه.

نظرتُ حولي للمبنى المجاور كان عبارة عن مشفى، أين عمِل زوجي السابق، لقد اختلف هيكله كثيراً.

بعد رؤيتي للسيدة كيت، تصرفاتي تغيرت، أصبحت غريبة في نظر عائلتي، حيثُ نصحني الجميع بزيارة طبيبٍ نفسي، ظننتُها فكرةً غبية، فأنا لا أحتاج لأحد، لكن إصرارهم القوي تفوق على قناعاتي.

في اليوم التالي أخذتُ موعدًا عند طبيب يدعى روبرت، أتذكر فترة انتظاري له بالخارج لقرابة الثلاث ساعات، يا إلهي كانت طويلة ومملة، لديه مكانُ مضجر وبارد، يشعرك وكأن العالم هنا ينتهي، كان أمامي بعض الأشخاص، مقارنة بهم تبدو حالي أفضل، أرى وجوهًا شاحبة، بدا واضحًا تفوق الحياة عليهم... ماذا عن هذا الطفل يا للسخرية... هذا ليس المكان المناسب له!.

أشارت إلي تلك المرأة، إنها تعمل عند الطبيب، حان دوري، شعرت بالرهبة قليلًا، للحظةٍ ما كنت واثقة، لكن كل ذلك تلاشى، يبدو بأن الأمر سيزداد صعوبة، فتحتُ الباب ودخلت.

لم يكن مكتبه كما نراه في الأفلام بل كان ذا طابع يشعرك بالهدوء، كان الطبيب روبرت يبدو كئيبًا... يرتدي بدلة كلاسيكية سوداء، ممسكًا بغليون - يبدو وكأنه يبعد عنه التوتر، أدهشني جمال شعره، إنه يعتني به جيدًا.

نظر إليّ بتمعن، تبسّم في وجهي... يريد أن يُشعرني بالراحة، قلتُ له: ((المعذرة أيها الطبيب روبرت، أشعر بالتوتر فهذه زيارتي الأولى لطبيب نفسي)).

- لا بأس سيدة كاثرين، استرخي قليلًا، تنفسي بعمق... أنا مُدرك بأن فكرة قدومكِ هنا – أشبه بأن تعتقدي بأنكِ جننتِ، وهذا أمر غريب، أليس من المفترض الخوف من الطبيب الجرّاح يكون أكثر من الطبيب النفسي؟!.

- أظن بأن هذه تفاصيلُ المجتمع.
- حسناً، ما الذي جعلكِ تفكرين بالقدوم إلى عيادتي؟.
- لم تكن فكرتي، إن عائلتي مصرّة على ذهابي للعلاج...
- أكملي حديثكِ.

شعرتُ بالرهبة، لا أعلم أين اختفتْ ثقتي بنفسي، ظللتُ أردد "من أين أبدأ"، سمعني الطبيب وقال: ((تخيلي بأن أمامكِ دفتر خالي – أشبه باليوميات، واكتبي ما تشعرين به)).

- أدعى كاثرين، لدي عائلة صغيرة، هنالك زوجي مايك وأبنائي جين ودريك، يُقال بأنني أشبه والدتي سامانثا، كما أن تصرفاتي كوالدي باترك، هنالك شقيقتي الكبرى سوزان، تمتلك شخصية قوية، لقد أحببتُ المحاماة منذ الصغر، فامتهنتها.

- وماذا عن حياتكِ الداخلية - مشاعركِ.
- تبدو رائعة في نظر الآخرين، في الواقع أشعر بالراحة، لكن ينتابُني القلق من فترة لأُخرى.
- ماذا تفعلين عندما تُصابين بالقلق؟.
- الحياة تمضي، وهو جزءٌ منها لذلك لن يستمر طويلًا... هكذا أقول.
- ماذا عن شخصيتكِ العامة.
- في الواقع أنا واضحةٌ تمامًا، وفي نفس الوقت أعمقْ مما يعتقد الآخرون.
- كالبحر.
- لم أفهم.
- في ظاهره هادئٌ للغاية، لكن داخله حياةٌ هائجة.

- أجل، تستطيع قول ذلك.
- بعيدًا عن العائلة، كيف يمضي عملكِ.
- أيها الطبيب، يبدو بأنك لا تقرأ الصُحف... أنا امرأة ناجحة في عملها.

كان يكتُب ملاحظات على ما أقول، وسألني سؤالًا مؤلمًا للغاية، قال: ((سيدة كاثرين، عندما تنظُرين إلى المرآة، ماذا يخبركِ انعكاسكِ؟)).

- بداخلي صراعات... لو أطلقتها لانتهى العالم... خضتُ معارك عديدة، تارة أنتصر، وتارة أخرى أنهزم، لكن حربي دائمة... ما دمتُ أتنفس فهي لن تتوقف.

- بداية جيدة، أتطلع لرؤيتكِ في القريب.
- شكرًا لك.

كان التحدث معه ممتعًا، وكأنه يعرف دواخلي جيدًا، لم أكن أتوقع بأن تلك الزيارة ستجعلني سعيدة، لوهلة أحسستُ براحةٍ كنت قد افتقدتها منذ مدة، أنا شاكرة له، وازدتُ إصرارًا على زيارته مجددًا.

عدتُ للمنزل مبتهجة، خلدتُ للنوم لعل أحلامي الجميلة تزورني مرة أخرى.

***

أتذكرُ تلك الليلة الهادئة، هطول المطر... مصطحبٌ معه صوتٌ رقيقٌ - بدت وكأن القطرات تزيل هموم المارّة.

خرجتُ من مكتبي بعد يومٍ شاق، رأيتُ أحدهم بجانب محطة الانتظار، اقتربتُ وكان حدسي على حق، إنها السيدة كيت نظرت إليّ، كانت تنتظرُني.

كانت كلماتُها توحي بالانتحار حينما قالت لي: ((لم تكن أيامي بسيطة، كل يومٍ يمر علي يتآكل قلبي، لقد قتلتُ... نفسي، كلما أنظرُ لكل شخصٍ حولي، أجده سعيدًا، أتدركين ما أمر به سيدة كاثرين؟!)).

اندهشتُ من حديثها، هنالك أثر طغى على قلبها، قلتُ لها: ((في الواقع سيدة كيت... تجربتي مع الحياة مختلفة قليلًا عنكِ)).

- نحنُ نشبه بعضنا، وجهكِ لا يستطيع إخفاء عُمق روحكِ، سأخبركِ قصة قصيرة، أنا لم أُولد بكل هذا الحزن... في الماضي كنتُ راقصة بالية كلاسيكية... كنتُ أعشقه، تجولتُ بين المسارح كثيرًا... لكن في فترةٍ ما توقفتُ عن إكمال حلمي.
- لماذا؟.
- وضعتُ أحلامي تحت وسادتي.

توقفت عن الحديث فجأة!، بعد لحظة بدت فيها أنها مُمسكة بمشاعرها قالت: ((أُضيء نور غرفتي في الثالثة صباحًا... من كل يوم؛ لعلّ الحزن يهجُرني، منذُ أن رأيتكِ في تلك الليلة - إنها تُشبه هذه الليلة تمامًا، لقد رأيتُ روحي القديمةَ فيكِ)).

سألتها بتعجب: ((لماذا أين هي؟!)).

- ماتت... منذُ مدة طويلة.

مجددًا، من دون أن تُودعني غادرت، نظرتُ إليها وهي تبتعد، مرتدية المعطف الأسود وكأن المشهد الذي أمامي يعود إلى القرن الماضي.

وجدتُ ورقة، سقطت منها لرُبما، كُتِب فيها

"أردتُ أن أكون آلة كمان".

لم تكُن مجرد امرأة، أمدّتني بشعور حزين... لماذا نتألم هكذا؟!.

إن الحياة قاسية في كثير من الأحيان، لكن كلمات السيدة كيت من أعماقها فتلك الحروف بقايا ألمٍ لا يختفي.

بعد فترةٍ ليست ببعيدة ذهبتُ لزيارة الطبيب، قابلني بوجهٍ مبتسم، أحضر لي كوبًا من القهوة، وقال: ((ما سر هذه الابتسامة سيدة كاثرين؟)).

نظرتُ إلى موضع قدميّ نجلًا وقلت: ((في اليوم الأول أخبرتني بأن أعتقد بأنك دفتر يوميات، مؤخرًا أصبحتُ أشاهد امرأة، بشكل دائم، تزورني في أحلامي... إلى أن قابلتها منذُ بضعةِ أيام)).

- كيف التقيتما في بادئ الأمر؟.
- إنها تتردد بشكل شبه دائم إلى "ويتلغون"، إنها حانة.. تلك المرأة كانت وحيدة، لا يأتي أحدٌ لرؤيتها فقط تنظر في الفراغ... تعرفتُ إليها في أحد الأيام.... كانت حزينة كلماتها أشبه بشخص على وشك الانتحار... كما أنني شاهدتها في غرفتي مرارًا لكن كانت.. تختفي - كما لو أنها سراب.
- ما اعتقادكِ عنها؟.
- أرى نفسي فيها، نصفها حزين، والآخر يوحي بالأمومة... في بعض الأحيان، أشعر بأنها تنقُلني إلى عالمٍ آخر... حيث أنا وهي والمطر، تصفها عائلتي بأنها خيال!، وذلك يجعلني مضطربة.
- أيمكنكِ وصف مشاعرها؟.
- حسنًا، كأن مشاعرها أشبه بطفلة تبكي بداخلها... وهي صامدة - أو ربما كأنها جنديٍّ قديم نجى من الحرب.

نظر إلي بتمعن وقال: ((تعمقتِ في شخصيتها سريعًا)).

- لأنها تُشبهني كثيرًا، كلانا له جانب حزين... هنالك رسالة تركتها من أجلي، وصفت نفسها بالكمان... ماذا تقصد؟.
- ربما تقصد بأن كل شخصٍ يعزفُها على هواه... لكنها في نهاية الأمر تخرِج لحنًا جميلًا... سيدة كاثرين، كيف ينتهي يومكِ؟.
- بتنهيدة... كان فترة حزني أشبه بالصداع، إنه لا يدوم.
- بخصوص تلك السيدة، ألم تسألي عنها من قبل؟.
- بلى، هنالك فندق "فيرونا"، حيث تبعتها، لكن لم يكن أحدهم يعرفها.
- ماذا استنتجتِ من كلماتها؟.
- أنها تُعاني، وكأن الحرب العالمية الثالثة قائمة على قلبها.. قابلتها مراتٍ قليلة، لكن كل لقاء ينتهي من غير وداع.. أشعر بأن للقدر خططًا أخرى.

لقد كنّا سيدتين مليئتين بالهزائم، إن انتصارَنا الوحيد هو آخر الليل... أين تلتقي أرواحنا.

توقف عزفُ الموسيقى الهادئة، وعاد بي إلى الحاضر، إنني أكره الماضي... وأخافُ المستقبل.

تساءلتُ في نفسي، لماذا دومًا كلماتي حزينة؟!، لقد أرهقتُ في حياتي كثيرًا... أبدو هادئة في نظر الآخرين، لكن بداخلي كلمات تُريد الخروج، تمر أيامي وكأنها ليست جزءًا من حياتي. نظرتُ للحانة، إنها مزدحمة... لكن كل تلك الأجساد صامتة، أشعر بالكلمات التي لم يتفوه بها أحدٌ تسبحُ حولنا، فكل منا له قصة.

أعود مجددًا إلى إحدى ليالي الماضي ومن أشدها ألمًا... كنتُ في غرفتي وحيدةً أبكي... شعرتُ بأن دموعي كلها سقطت مرة واحدة - أبدو كصحراءٍ خاوية يأبى الجميع بأن يرويها.

علمتني الحياة بأن هنالك أيامًا يكون في محتواها ألم سنين عدة، كان بكائي مليءً بمشاعر كنتُ قد دفنتها فترة شاخت مع الوقت... كنت أردد كلمات كثيرة... لماذا تعتقد عائلتي بأنني مريضة؟، صحيح بأنني في كل يوم تتجدد صراعاتي الداخلية، فعندما أشاهد نفسي في المرآة أتأكد بأن الظروف قد غيرتني - كمومياء بلا ملامح.

لماذا علي أن أختنق بأحزاني؟، فأنا إنسانة في هذا العالم ومشاعري لا تعدُّ جنونًا!، لم تعد لدي أحلام... أريد فقط أن أرقد بسلام... أصبحتُ أعيش حياةً لا أملكها بل تمتلكني، أمر مرهق.

كانت مشاعري تتحدث معي ليلًا كثيرًا، في كثير من الأحيان لا أفهمُها... لقد مررتُ بأيامٍ جعلتني أركع، وهذا قاسٌ - يبدو وكأن روحي تُنتزع مني.

في الواقع أكنُّ مشاعر جيدة تجاه الطبيب، فقد كانت حالتي أشبه بأن تكون فارغة تمامًا، لكنه قد فهم شخصيتي جيدًا، لقد أزال عني الكثير، يذكرني بزوجي السابق... كلاهما مستمعانِ جيدان، لكن كانت ملامحهما... تبكي.

لم أستطع نسيان زوجي السابق... لو كان بالإمكان رؤيته مرةً أخيرة، أريد إخباره بأن هنالك كلمات عالقة في سقف حنجرتي، أتذكر كم كان يُحبني، للأسف لم أكن مثله قط، لقد أحببتُ اهتمامه بي... كان وجوده يخبرني بأن العالم هادئ، يخلو من الفوضى، لكنني أدركتُ بأن الفوضى تعم بداخله...

لطالما كان يتجاوز كل شيء ما عدا شخصٍ واحد... إنه أنا، لقد كنتُ جزءًا من حياته لكنه لم يكن جزءًا في حياتي من قبل... لقد رسمتُ بين طياته مشاعري الدفينة... كانت محزنة... لقد أخذتُ منه السعادة وتركت الحزن له، أدرك أن هذا مؤلم، لا بأس جميعنا نتجاوز الماضي ونمضي.

أتذكر تلك الرسالة... كانت كلماتها مؤلمة لي، احتوت على

"مساء الخير،

سيدة كاثرين، هل قرأتِ لغة المشاعر من قبل؟، أصبح الدمعُ ينزل من عينيّ على شكلٍ مشاعر... مشاعر بائسة، تصرخُ ألمًا، لا أحد يشعر بها ولا يفتقدُها، إنها لا تطلب المحبة، تريد لأحدهم بأن يفهمها.

مجرد امرأة".

لم تكن تلك مجرد كلمات، بل بقايا معارك داخلية، ماذا تريدُ تلك السيدة مني؟!، لقد كرهتُ خيالها الذي أصبح جزءًا من حياتي.

لم أبحث عنها، فقد كنتُ متأكدة بأنها سوف تأتي إليّ.

حاولتُ بشتى الطرق بأن أبتعد عنها، قابلتُ الطبيب مرارًا، لكن لا شيء جديد ما زلت أراها في الأرجاء دون أن تتحدث، لقد أرهبتني كثيرًا.

ففي إحدى الليالي عدتُ من العمل في وقتٍ متأخرٍ... حيثُ لا أُحادث أحدًا، كعائلتي تمامًا وصفني الزملاء والأصدقاء بالجنون، لم أكترث، فما بداخلي أثر بشكل كبير في مشاعري الخارجية، فبعد ابتعادي عنهم ذهبتُ إلى "ويتلغون"، أجل... إنها الحانة ذاتها التي أكتبُ فيها هذه المذكرات، فبعد دخولي لها تفاجأت مما رأيت، يا إلهي إنه العام الجديد!، تفُصلنا بضع ساعات عنه، كيف نسيته... أدركتُ حينها بأنني وصلتُ إلى حالةٍ لم أعهدها من قبل طيلة حياتي، كنتُ وحيدة تمامًا، لا أحد يشعر بوجودي هنا.

جلستُ على إحدى الطاولات، والدهشة تعبّرعني، لقد مضت الأشهر، في كثيرٍ منها كانت أوقاتي قاسية.

عزفتْ إحدى الفرق أغنية... كانت تصفُني، في تلك اللحظة اكتشفتُ جزءًا جديدًا مني، لا أحدُ هنا يعرفني سوى تلك النادلة الشقراء، أتذكر قدومها إلي عندما رأتني حاملةً بيدها كأسًا من الشراب، وضعته أمامي وقالت: ((سنة سعيدة سيدتي))، تبسمتُ لها، يا للهول أنا كالقمر لا يذكره أحد إلا عند الوحدة، لكن ماذا عن وحدتي، أردتُ أن أرمي الكأس وأخبر الجميع بأن يلحظوا وجودي، لكنني لم أفعل شيئًا وغادرت.

علمتني الحياة بأنه لا أحد يكتب عن سعادته، لكن هنالك الكثير من الأشخاص يكتبون عن أحزانهم، وأنا منهم لذلك أُمرر مشاعري عبر كتاباتي.

لم تكُن الحياة تمضي بشكلٍ جيدٍ، فقط لو نظر أحدهم لوجهي لأدرك كم أنها تمرُّ بداخلي بوصفها عاصفة، يعتقدُ الجميع بأنه بإمكاني حملُ هذا العالم فوق عاتقي، بينما بالكاد أستطيعُ حمل نفسي.

وصلتُ منزلي في تلك الليلة البائسة إلى منزلي... أخرجتُ المفتاح من حقيبتي... أخافني صوتُ شخص ما قال: ((سيدتي))، التفتُ للخلف... كانت السيدة كيت، اقتربت مني... أمسكت يديّ وأكملت: ((أنا خائفة... خائفة من ألا أراكِ مجددًا، فقدتُ كل ما أملك من مشاعر، لكنكِ تعيِدين لي الحياة)).

خرجت منها تلك الكلمات وعيناها تُدمع... يا إلهي إن ملامحها عميقة... رأيتُ روحي فيها. أخرجت من حقيبتها ورقة وقدمتها لي "هل يبكي الليل؟".

قلتُ لها: ((إنه كالقمر، فحين يتساقط المطر يبدو عليه الحزن، لكنه رغم ذاك يُبهج الآخرين - كعمودِ الإنارة الذي أمامنا، لا أحد يعلم كيف كان يومه)).

- سيدة كاثرين، أريد إخباركِ بقصتي؟.
- كلي آذانٌ مصغية.
- لربما تندهشين مما أقوله لكِ، قصتي حزينة... لا أشكو أمرًا ما، فكل ما أريده أن أحرر مشاعري... أن يزهر قلبي، سئمتُ من الكآبة التي تعتريني.

- سيدة كيت، لا أعلم كيف أساعدكِ، في الواقع من الأفضل أن تذهبي لطبيب نفسي... لا تفهميني بشكل خاطئ، فمثل هؤلاء الأطباء لديهم الحل للمشكلات النفسية وذلك لا يمتّ بصلة للجنون.
- مقترحٌ جميلٌ، لكنني أرى نفسي فيكِ ولا أحد يمكنه أن يتفهم وضعي مثلكِ، انظري حولكِ قليلًا، الجميع سعداء ما عدا نحنُ الاثنتان... أجل لديكِ عائلة رائعة لكنك وحيدة فتلك المرأة التي بداخلكِ لا أحد يفهم ماذا تُريد، وكل دمعةٍ تذرفها تحكي قصةً عن حياتكِ الخارجية.
-

تقمّصتُ دور الفاصلة، كي تهدأ أعماقي، من دون أن ألحظ، أضاءت السماء بالألعاب النارية مهللةً بعامٍ جديدٍ، ومجددًا اختفت السيدة كيت من أمامي، دخلتُ منزلي... كان مايك وأبنائي يلقون التهاني على بعضهم جلستُ على إحدى المقاعد، أستمعُ لأغنية حزينة... تجعل الإنسان يتقلّب مع ذكرياته.

يا تُرى ألا يبكي مؤلف الأغنية الحزينة؟!، فأنا أبكي مع كل حرفٍ أسمعه، وكأنها أُغنيتي أنا.

تساءلتُ، لماذا مشاعري باردة؟!، فكيف لأم ترى أبناءها سعداء ولا تفرح!، لقد تراكمت عليّ المآسي، إن سعادتي أشبه بسفينة غرقت... ونسيها الجميع.

عندما اجتمعنا على طاولة الطعام كنّا نصطنع السعادة، أمامي يجلسُ مايك... يبدو سعيدًا لكنه محطم، يخفي داخله جروحًا لم تلتئم، لكنه صامد في وجه الحياة من أجلنا.

وصلتنا في تلك الليلة رسائل عدة من الأصدقاء، لا يدركون بأنها مجرد سنة... تتغير أرقامها فقط، لكن نظل نحن كما كنّا.

أتذكرُ في تلك الليلة، لم أستطع النوم، نهضتُ من فراشي على صوتِ بكاء، اتجهتُ نحوه... كانت ابنتي جين تبكي، لم أقترب منها في تلك اللحظة، كان مُحتّمًا على ما دُفن بداخلها بأن يخرج على شكلٍ دموع، فكم هو محزن عندما تكون الليالي أشبه ببحرٍ من الدموع... انتظرتها إلى أن توقفت، وضعت ورقة على منضدة وغادرت.

كنتُ فضولية أردتُ معرفة تلك الكلمات التي أرهقتها، قرأتها:

"أرجوكم، عندما أموت لا تبكوا عليّ، وجوهكم جميلة فأتمنى بأن لا يطرق الدمع تفاصيلها، لا تزوروا قبري... أبعدوا الورد عني، فرغم جماله فأنه يذبل... أرجوكم انسوني، كنت سعيدًا بمعرفتكم، أرجوكم افرحوا ولنلتقي تحت سماءٍ أخرى".

تلك كلمات زوجي السابق... كلمات تبكي... كلمات لا أحد يستطيع فهم عمقها. أدركتُ بعد تلك اللحظة بأن هنالك شيء بداخلي قد تألم.

۞ ۞

أعادتني ضجةٌ في الشارع للحاضر، يا لجمال تلك الفتاة الصغيرة، تبدو كالأميرات، ممسكة بوالدتها... فهي مأمنها من وحشة هذه الحياة... حياةٌ لا تريد بأن تنتهي... لا تكترثُ لنا... إنها تمضي فقط.

أتذكر زيارتي للطبيب في مرةٍ أحسستُ بعدها بالراحة، أخبرته بقصة، كانت في طفولتي، أتذكرها جيدًا، ذهبتُ مع عائلتي إلى باريس، كانت أمسيةً ممطرة، كنتُ أرتدي فستانًا أبيض، في ذلك الجو لم يكن يُسمح لي بالخروج، وقفتُ من خلف النافذة أنظر للمطر، أردتُ ملامسته، فقد كنتُ أحلم بأن أشعر به، تسللتُ خفية لم يلحظني أحد، كانت تلك المرة الأولى التي أعانق فيها المطر، كانت قطراته باردة، كما أنها هكذا باريس باردة المشاعر، كانت باريس تشبهني أيضًا.

بدا الطبيب سعيدًا لتجاوبي معه، قال لي: ((سيدة كاثرين، ما الذي أدركته من السنين الماضية؟)).

- أنني سوف أقع على الأرض كثيرًا، لكن ذلك لا يعني بأن أنسى أحلامي، بل علي النهوض مجددًا والمحاولة – لكن الليل أقوى مننا... كنتُ أستيقظ في آخره أبكي، أتعلم كم هذا مؤلم، كل ما أردته بأن أشبه تلك الأماكن التي أسعدتني.
- سيدتي نحن لا نشبه الأماكن، لكن هنالك ذكريات جميلةً قضيناها فيها، فهي تُعيدنا لتلك الأيام.
- أشعر بأن الماضي يقاوم... لا يريد أن يتغير، مؤخرًا قرأتُ رسالة كتبها زوجي السابق، فرغم أنه مضى الكثير على موته، فأنني أشعر بأنه جواري... لقد أحبني، ولم أدرك قيمة ذلك قط.
- هل أحببتيه أنتِ؟.

- لا... فقط كنتُ أعشق اهتمامه بي، كانت معاركه كثيرة، كنت أتعجب له... من مواجهتها، كيف يبدو بكل هذا الهدوء وهو على وشك الغرق؟!.

فاجأني الطبيب عندما قال: ((ربما كان ينتقل من كابوس إلى حلم)).

- لقد كنتُ أنا عائلته... في اليوم الذي أخبرته عن انفصالنا بكى... لم أدرك حينها بأنه طفل، لا يريد فراق عائلته.
- في كل مرة تتحدثين عنه، تتحدث مشاعركِ هي أيضًا تبكي... لكن لا أستطيع سماع بكاءها، حسنًا لنخفف الحديث قليلًا... استرخي لبعض الوقت.
- لا بأس، أنا بخير، أتعلم أمرًا، لقد كان يدرك دومًا ماذا أريد...لكن لم أعرفه جيدًا، إنه إنسانٌ أيضًا... يريد أن يشعر به أحدهم.
-

غادرتُ الطبيب ومشاعري هادئة.

علمتني الحياة بأن هنالك أشياءً تحدث تذكرنا بأماكن نريد الذهاب إليها، بينما هنالك أشياءً أخرى تحدث تذكرنا بأماكن لا نريد العودة إليها مجددًا، فمع مرور الأيام كان حزني واضحًا - كان يتنفس من خلالي، أدركتُ بأن لكل منا قصة، تفاصيلها مؤلمة، وكلماتها محزنة.

في مساءٍ ممطر كانت جين جالسةً عند مدخل المنزل، جلستُ جوارها نتأمل الشارع، قالت لي: ((والدتي... لماذا تستيقظ مشاعرنا في الليل؟)).

- لأن الليل يشبهها، فكلاهما حزينان... سأخبركِ بقصتي مع والدتي، حين كنت على وشك التخرج، أحضرت إليّ فستانًا لؤلؤي اللون، وقرطين ناصعين، وحذاءً أبيض... كانت تلك أغراضُها القديمة، كنتُ أرتديها في كل يوم أكون فيه سعيدة.
- لماذا؟.
- لأن والدتي كانت ترى سعادتها من خلال سعادتي، ولم أحزن أمامها قط، كانت تقول بأن الملائكة لا تحزن.

كلماتي أثرت في جين، فلم تخفِ تلك الابتسامة... كانت هادئة لجمالها،!، في داخلي، لماذا لا أقضي ما تبقى من حياتي رفقة عائلتي؟... أريد أن أخبرهم بأن البكاء أرهقني، كما أن الليالي لم تكن تمرُّ بهدوء... أشعر بأن هنالك حريق مشتعل بداخلي... أريد من أحدهم بأن يمطر في على قلبي - وكأنه غيمة، طيلة حياتي لم أشعر بمثل هذا العجزِ قط، فأنا أمتلك حياة لا تشبهني... لطالما تواجد في حياتي أشخاصٌ كانوا كالنجوم، لكن حان دوري لأظهر بريقي ولو لمرة... واحدة.

كانت الكوابيس تجتاحُني، عدتُ لا أعلم في أي ليلةٍ قد نمتُ بهدوء.

وجدتُ رسالة على رفّ موجود في غرفتي، كُتِب فيها

"إن الإنسان الحزين يملؤه جمالٌ حادٌّ".

أدركتُ بأنها كلمات السيدة كيت، كان حزنها أنيقًا، لكن لماذا تستمر بملاقاتي هكذا؟، أريد الابتعاد عنها... ولماذا أشعر بأنها تعرفني أكثر من نفسي؟!. فتحتُ نافذتي لعل هواء الليل يرخي روحي، كان الشارع لا يكتظُّ بالمارة... ألا يتساءل ذلك الشارع لماذا الجميع يعبره؟... لماذا عمود الإنارة يضيء بينما هو يريد أن يقفو!... ومن يكون ذلك الرصيف؟!، هل هو يعشقه أم ماذا، أجده ملتصقًا به دومًا... من الذي غرز صناديق البريد تلك في منتصف روحه... ماذا عن قطراتِ المطر، إنها تبدو كدموعه... أنا حزينة من أجلك يا أيها الشارع، أقفلتُ نافذتي ونمت... ونامت أحلامي.

كان الماضي حزينًا، لكنني لا أريد له أن يعود.

❁ ❁

عدتُ إلى حاضري، طلبتُ من النادلة كوب ماء... أردتُ الارتواء فمعركتي مع الماضي اجتاحت ذاكرتي.

أتذكر استيقاظي المخيف... نهضتُ من فراشي، وكعادتي نظرتُ للمرآة، لم تكن تلك ملامحي قط!... كان وجهي غريبًا، للمرة الأولى لم أتعرف إليه، لقد تغيرت تفاصيله، رأيت امرأتين إحداهما أنا والأخرى السيدة كيت!... متشابهتان في المشاعر والحزن... لقد امتزجنا معًا!، كم هذا غريب، حاولتُ الابتعاد من مكاني، لكن لم أستطع!... لماذا أشعر بثقل؟... رؤياي غير واضحة، ومجددًا جسدي بارد، بدأت بشرتي تشحب... سقطتُ أرضًا.

استيقظتُ بعد مدة طويلة، نظرتُ حولي... لقد تغير المكان، هذا ليس منزلي، نهضتُ من موضعي، تفحصتُ الجدران التي كانت تبدو كلوحة... منظرها يدفعني للبكاء... هنالك رسائل لي ولكل من كان حولي، كُنت أنظر إليها ودموع ذكرياتي تتساقط –

وكأن جزء من شريط حياتي يعرض أمامي. كنتُ مزدحمة بالأصدقاء... وكانوا هم تلك الرسائل، يا إلهي...
مضى الكثير، أردتُ أن أعرف أين أنا؟!، لماذا يبدو كل شيء هنا وكأنه جزء من حياتي!، في تلك اللحظة أحببتُ الوحدة... لا أريد تلك الذكريات فهي تعيد إلي الألم.

وقعتْ عيناي على رسالة، كان محتواها:

"عندما أنظر إليكِ أجد مشاعري القديمة"

كانت تحمل إمضاء زوجي السابق،!، في غرارة نفسي، لماذا يا ترى يجول في خاطري كثيرًا؟، في كل حرفٍ يكتبه كانت ترافقه دمعة.

لوهلة ما رأيت ظلًّا، اتجهتُ نحوه مسرعة، ظللتُ أسعى خلفه إلى أًن تهت... وجدتُ نفسي في الطرف الآخر من المنزل، لا أعلم كيف وصلتُ هنا!، يا لها من حياة غريبة أعيشها، لماذا يحدث لي كلّ هذا؟

هنالك خطبٌ ما، بكيتُ فترةً وجيزةً، وعندما أوقفت أحزاني عدتُ إلى غرفتي.

أدركتُ في تلك اللحظة بأنني لستُ على ما يرام.

كانت زيارتي للطبيب محتمة وقد فعلت، أتذكر جلوسه أمامي مشعلًا غليونه القديم ورائحة الدخان تملأ المكان، واضعًا أمامي كأسين من الليمون، نظر إلي مطولًا ثم أردى قائلًا: ((أتعلمين أنا سعيد على كل منعطف خاطئ في حياتي، فذلك منحني التجربة، فلا تظهري وجهكِ الحزين أبدًا)).

- أنت لا تعلم ما أمر به... أنا مرهقة، أريد أن أحلق بعيدًا عن هذه الأحزان.
- سيدة كاثرين، لا تحتاجين جناحين كي تطيري... قد تكفيكِ رؤية أحدهما فقط.
- بالأمس حدث أمر غريب، لا أدري إذ كان حقيقة أم لا، لكن ما هو مؤكد بأن شكلي قد تغير.

- ربما تكون مشاعر قد تجسدت... لا أحد يعلم كيف نبدو من الداخل.
- لقد بكيتُ كثيرًا، لم أكن أعلم من أنا!... كانت ذكرياتي القديمة تغمرني، أشعر بأن هنالك آخرين يسكنون جسدي.
- ماذا يريدون منكِ؟.
- أن أتوقف عن الحلم.

كنتُ أسطّر أحزاني بين أوراقِ الليل، علمتني الحياة بأن الوقت لا ينتظرُ أحدًا، فقط يمر بمحاذاتنا ويتخطانا.

في تلك الفترة كنتُ أشعر بالحزن، أجوب الشوارع مساءً وأقفو صباحًا، هنالِك أفكار تتردد في داخلي دومًا، متى سأتغلب على هذه الحياة؟، فأنا حقًا لا أُريد النجاة فقط.

كانت أحلامي كبيرة، لكن ما لا يدركه أحدٌ بأنه يُصعب علي فتح نافذة غرفتي.

هل التقى أحدٌ ما بنجمة من قبل؟... في الواقع أنا فعلتْ.

كانت الساعة الثالثةَ صباحًا، جالسةً في فناء المنزل وحدي، نام الجميع واستيقظت النجوم، رأيتُ السيدة كيت تتجه نحوي - أشبه بنجمة سقطت من السماء إنها لامعة، جلست جواري، وضعت فوق الطاولة رسالة... فتحتها لأعرف ماذا كُتِب فيها

- "ما رأيكِ بأن تحيي من جديد ؟".

نظرتُ إليها بنظراتٍ تملؤها الحيرة، قلتُ لها: ((لكنني حية، لم... أمت قط)).

كانت تنظر أمامها وقالت: ((أنتِ مختلفة، لا تشبهين الآخرين، هم يتنفسون الهواء، وأنتِ تملكين شيئًا مختلفًا)).

صمتُّ لفترة في محاولة مني لأجمع كلماتي بشكلٍ صحيحٍ، قلت لها: ((أنتِ تعلمين عني الكثير!، هل أنتِ شخصٌ يسكن بداخلي؟، ولماذا لا يلاحظك أحد غيري؟!... ولا أدري من أين تظهرين)).

- سيدة كاثرين، لن تفهمي. وغادرت.

خِفت منها في تلك اللحظة، لم تكن مجرد سيدة، ذهبتُ للفراش لعل النوم يخفف ما أمرُّ به، لكن في تلك الليلة راودني حلمٌ أفزعني بشدة، تقف الكلمات عاجزة عن وصفه...

رأيتُ كوخًا خشبيًّا في إحدى الغابات، كان المطر ينهمر بغزارة، حيثُ لا أرض ثابتة ولا رؤيا واضحة - وكأن طقوس السماء خرجت من داخلي إلى الخارج، ألقيتُ نظرة إلى الأعلى، كانت الغيوم مختلفة للغاية، في تلك اللحظة سمعتُ صوت بكاءٍ مدوي، اتجهتُ نحو الكوخ، شاهدتُ رجلًا يلقّم بندقيته، أغمضتُ عينيّ خوفًا، تنفسي مضطرب، نظرتُ للكوخ مرة أخرى، رأيتُ امرأة غارقة في دمائها، هربتُ فورًا، ظللتُ أركض وأنا ألتفتُ للوراء مشاهدةً إلى أي مدى ابتعدت، فإذا بي أنزلق من حافةٍ جعلتني أستيقظ، لم يكن مجرد حلم.

ظلّت التساؤلات تجول في رأسي، كان حلمًا غريبًا لكن هل كانت تُريد تلك المرأة بأن أساعدها؟.

الاكتئاب... ربما ذلك المرض يُعبر عن حياتي، تعتقد عائلتي بأن هنالك خطباً ما، لقد تعبتُ من التصنع، فتلك الابتسامة المرسومة على وجهي تخبر زملائي بحجم السعادة التي تحيطني.. أمتلكُ جميع المرفِهات التي تريدها الأنثى، أما أصدقائي فحاولوا بجهد إبعاد اليأس مني.. لستُ حزينة فقط.. لا أشعر بالاطمئنان - مشاعري أشبه بطفلٍ يعجز عن الكلام.

۞ ۞

لم أنتظر الكثير، وضعتُ بعض الملابس بداخل حقيبة بنية اللون، كتبتُ لعائلتي رسالة بأنني سأذهب لزيارة والدتي بضعة أيام، انطلقتُ في الصباح الباكر، كان منزل والداي يقعُ على أطرافِ المدينة، في الحي المخيف، كما كنا ندعوه.

لقد تغير المكان منذُ آخر مرة قدمتُ هنا، وضعتُ حقيبتي بجانبي ووقفتُ أمام باب المنزل، إنه كما كان... لا تزال اللوحة التي كُتِب فيها

"منزل السيد باترك والسيدة سامانثا"

كما هي، طرقتُ الباب بهدوء عدة مرات، حينها فتحت الباب أجمل امرأة في حياتي قالت لي: ((كاثرين))، عانقتني بحزن السنين، بذكريات الماضي، بعمق الأمومة، أكملت: ((منذ أن أخبرتني بقدومكِ وأنا أنظر من خلف النافذة، أشاهد المارة والغيم وقطرات المطر كطفلة تنتظر عائلتها))، لوهلة ما أصبح صوتها يبكي، بدا ذلك واضحًا حين قالت: ((لقد كانت مدة طويلة دون أن أراكِ)).

في كل مرة أرتمي لحضنها أحسُّ بالأمان وكأنني خالية من المخاوف... فأنا لستُ قوية لكن لا أريد أن يراني أحدهم والضعف قد تمكن مني.

كان لقائي بها بعد فترة طويلة يشعرني بالدفء، فهي أجمل امرأة رأيتها في حياتي... لا تزال يافعة، ترتدي بلوزة سوداء وبنطال أسود عليهما معطف أحمر، يعكس ذلك جمالها... سرحتُ فيها لوهلة، لقد اشتقتُ لها حقًا.

نظرتُ بلهفة للماضي الذي تكدس بين جدران هذا المنزل... رائحة ليالي الشتاء لا تزال كما كانت... باردة، مطمئنة، ومبهرة... لم تخلُ صورنا من على ذلك الرف... يا إلهي كم كنا صغارًا... أذكر ذلك الفستان، التقطت تلك الصورة في باريس.

تجولتُ في المنزل... أرى نفسي في كل مكانٍ حولي ففي تلك الزاوية كنتُ أبكي لرفض عائلتي بأن أقصّ شعري، وعند تلك الأريكة تشاجرتُ مع سوزان وهنا أُعجبت بأحدهم.

يا للعجب... لا تزال ذكرى زوجي السابق تتبعني، كُنت أعتقد بأن يمكن محو الأشخاص من حياتنا، لكن أثرهم يظل موجودًا، كم أنا مخطئة.

توجهتُ إلى العلية أينما كنتُ ألهو في صغري، ألقيتُ نظرة كاملة على المكان، بدأتُ أسترجع طفولتي وكأنني قد نسيتها.

يا إلهي كم كبرنا!، نحنُ الذين كنا بالأمسِ صغارًا... تذكرتُ والدتي وكيف كانت تهتم بنا، إنه لمن الصعب أن تكوني أمًّا، صحيح هي مجرد حرفين عند الكتابة، لكنها في الواقع أكبر من ذلك كثيرًا، أتذكر عندما يعتلي عينيّ دمعٌ، كانت تقول لي والدتي... في بعض الأحيان نحتاجُ للحزن في حياتنا، فهنالك أمور تمرُّ من خلاله.

في هذه الحياة ستجد الكثير من الأشخاص يهتمون بك لكن لا أحد كالأم، كانت نظرتها تكفي لتشعرني بالأمان، كما أنها دائمًا تغمرني بالطمأنينة، في حين أنها تريد من أحدهم أن ينقذها من فوضى داخلية، فكم أنا فخورةٌ بأمي.

عندما انبثق المساء تناولنا الطعام معًا، حيث الهواء العليل يمر بين خصلات شعري ورائحة الذكريات الجميلة.

كان منظر المنزل كالمهاجر الحزين - يبدو من الخارج سعيدًا لكن داخله يبكي على عمرٍ قد مضى، ترددتُ كثيرًا لأقول لها عن سبب قدومي، لقد آتيتُ محمّلة بالكوابيس، بدوت كطفلةٍ صغيرةٍ... تتشابك أصابعي وتعلو وجهي نظرة خوف وأردفتُ لها: ((والدتي، أنا وحيدة تمامًا... هنالك جزءٌ مني قد مات... منذ فترة طويلة))، قلتُ تلك الكلمات وصمتُّ، لم أكن أنظر إليها، كان رأسي مليءً بالأفكار الغريبة، وقد أخبرتها بأمرٍ بسيطٍ أرهقني، قالت لي: ((لستِ وحدكِ يا كاثرين)).

انفجرتُ فيها صرخًا: ((دومًا تقولين لي ذلك، لكنكِ لا تدركين حجم المعارك التي خرجت منها، لم تكوني معي في وحدتي حتى والدي وسوزان... فقط كنت لكم مجرد قطعة ناقصة لأكمل أحجيتكم، في كل مرة أحتاج أن أكون وحدي)).

توقفتُ عن الحديث، كانت أنفاسي تتضارب، وكانت والدتي واقفة أمامي ذات ملامح مصدومة... اقتربت مني، لكنني جعلتها تبتعد، قالت لي: ((أنا آسفة))، وغادرتني.

لقد جعلتها تشعر بخيبة أمل في تلك اللحظة.

في كثير من الأحيان تخرج مشاعرنا من داخلنا على شكل حديث قد لا نقصده، لكن ملامحنا تقول عكس ذلك، كنتُ متأكدة بأن والدتي تتفهم حالتي، مكثتُ في سريري لعل الوحدة تحتويني.

وجدتُ تحت وسادتي رسالة... ترددتُ كثيرًا في قراءتها لكنني فعلت، كُتِب فيها

"سيدة كاثرين،

لم أستطع نسيانكِ قط، لدي مشاعر لم تصل قط، وهذا أمر مرعب، بعضها يصفني، في هذه اللحظة أدرك جيدًا كم أنتِ حزينة، أرجو بأن تفهمي بأننا لن نفترق

مجرد امرأة".

أخافتني كلماتها، كيف علمت بأنني هنا؟.

توجهتُ بعد تلك اللحظة المضطربة إلى غرفة والدتي، توقفتُ عند الباب، كنتُ أنظر إليها وهي تحمل دميتي الصغيرة... كانت ملامحها حزينة، دموعٌ على وشك السقوط، ابتسامةُ مبكية، وخدان قد توردا، قالت لي: ((في مرة ما تمنيتُ أن أسافر عبر القطار، حيثُ مقعدي جوار النافذة، أشاهد كل ما يمر أمامي، لطالما تخيلتُ ذلك المنظر، إلى أن أدركتني الحياة وتزوجت، حاملةً مع زوجي أحلامٍ ظننتها لن تتحقق، فظللتُ أبكي الليالي، فقد أقنعتني الحياة بأن أمنياتي لا تريد التحليق، وكنتُ أكره الحياة كثيرًا، لم يكن والدكِ اختياري قط، لكنه أصبح كذلك، شجعني على إكمال تعليمي، لقد أوقف الحزن من عينيّ وأهداني سوزان... كانت تلك الفترة رائعة فقد اكتشفتُ ذلك الشعور... الأمومة، كبرت سوزان قليلًا وظننتُ بأنها النهاية، كانت فرحتي الوحيدة... إلى أن دخلتِ حياتنا، كنت سعيدة للغاية، حملتكِ للمرة الأولى، كنتُ نخورة، كان مخطط الحياة قاسيًا، لماذا لا نبقى صغارًا؟... أتذكر حينما أوشكتِ على الذهاب إلى الجامعة، قلتِ لي... "والدتي، أنا ذاهبة، لا تنسيني مهما حدث،

تذكريني... أي رسالة مني ضعيها في صندوق، وفي كل مرة تشتاقين فيها إلي... انظري لهذه الدمية وستشاهدينني بجانبكِ"... مضت الأيام، ولم أجد منكِ أي رسالة، ولا أي اتصال، فكنتُ أعود هنا وأعانق هذه الدمية)).

كانت تنظر إليها بحب - وكأن جميع ذكرياتي معها قد سكنت داخلها، ابتعدتُ عنها منذ تلك اللحظة، لم أقل لها إلى اللقاء، كان صمتي يقول وداعًا.
في كل لحظةٍ تبكي فيها والدتي أشعر وكأن العالم كله يبكي، وما أقسى بكائها على قلبي، تركتها حزينة في وحدتها، فبعد غيابي عنها لمدة ليست بالقليلة، لم أستطع المكوث معها ليومٍ واحد.

فهنا في "ويتلغون" قضيتُ لحظاتٍ رائعة لم أقضها مع... والدتي.

تعود بي الذكرى إلى ذلك المساءُ الهادئ، كنتُ أقود عربتي في طريقي إلى البحر، أردتُ أن ألتقي بأحدٍ يدرك مأساتي، أتذكرُ تلك اللوحة التي رأيتها، كُتِب فيها:

" عندما تنتهي الحرب سأبكي"

حدقتُ بها طويلًا وتساءلت... ماذا لو كانت الحرب قائمة؟

طلبتُ من البائع كوبًا من الذرة، كان البحر على غير عادته... هائجًا بعكس المساء - يبدو بأن هنالك من أرسل مشاعره للموج، رأيتُ السيدة كيت تجلسُ في المقعد الذي اعتدتُ الجلوس عليه، أهي في انتظاري أم تلك مجرد صدفة؟، ابتسمت إلي، كانت مختلفة... أعجبتُ بشعرها الأسود الذي تطايرت خصلاته جراء الهواء، قالت لي: ((وضعتُ تلك الرسالة تحت وسادتكِ كي أشعركِ بوجودي)).

- كيف علمتِ بأنني سأمكث عند والدتي.
- عيناكِ يا سيدة كاثرين، إنهما عيناكِ... ففي آخر لقاءٍ جمعنا كانت عيناكِ تبحثان عن الأمان، ولا أحدًا يجده غير عند الأم.
- أنتِ مختلفة عن الآخرين!.
- في الواقع أردتُ أن أخبركِ عن شعور اجتاحني، في الماضي أحببتُ أحدهم كثيرًا، لدرجة تفوق الخيال، عندما أسمع صوت الرعد كنتُ أشعر بالخوف من أن يصيبه شيء ما، لم أكن أحتمل ابتعاده عني... لقد كانت ابتسامته تجعل يومي جميلًا، في فترةٍ ما أصبح يمضي معي القليل من

الوقت ويبتعد لفترة أشعر بأنها أبدية، كان بارعًا في الابتعاد.

لم تستطع إكمال حديثها، كانت عيناها على وشك أن تذرفان دموع متألمة، حاولتُ أن أخفف عنها لكنها لم تكن تستمعُ لي فقط تريدني بأن أسمع حديثها، أكملت: ((لم أستطع نسيانه قط، ففي إحدى الأيام قال لي "أحبكِ فأنتِ لا تدركين حجم الليالي التي لم أنمها بسببكِ فلطالما كنتِ داخلي"، فقلتُ له توقف أرجوك... أصابته الدهشة من حديثي قال "لي لماذا؟!"...)).

لم تكمل وكأنها خائفة، قلتُ لها: ((ماذا كان ردكِ له؟)).

- لأنني سأحبك مرة أخرى وأنت ستغادرني... وكما توقعت لم أره بعدها قط.
- لماذا تخبريني بكل ذلك؟.
- لأنكِ مثلي تبحثين عن نفسكِ في كل الوجوه... حتى في المرآة هنالك جزء ناقص فيكِ.
- هل تريدين مني أن أبحث عنه؟.
- أجل... فأنا أنتظره منذ سنين، أريد لروحي بأن تنام.

- إذًا لقائكِ بي لم يكن بمحظ صدفة!.
- الحياة هي من قررت كيف نلتقي سيدة كاثرين.

ابتعدتُ من مكاني سريعًا، ركبتُ العربة وذهبت إلى "ويتلغون"... شعرتُ بالاشتياق لها، لا تزال كما هي، الجميعُ منصت لسمفونية مؤلمة تُعزف، جلستُ في مقعدي المعتاد حيثُ أنا الآن...

أحضرت إلي النادلة طلبي، كوبًا من القهوة، وذهبت من طاولتي لكن لم يمضِ الكثير حتى رأيتها مجددًا، قالت لي: ((عذرًا يا سيدتي... تبدين مختلفة هذا المساء، هل أنتِ بخير؟)).

وضعتُ ابتسامةً على وجهي كي أخفي شعوري: ((أجل أنا بخير، شكرًا لكِ)).

قالت لي وهي تنظر إلى العازف: ((جميلةٌ هذه المعزوفة إنها تصدم بمشاعركِ)).

- إن مشاعري عميقة.

- تبدين كالبحر تمامًا – من الخارج هادئة لكن هنالك عاصفة داخلكِ.
- لقد أخبرني طبيبي النفسي بذلك أيضًا.
- أتعلمين بأن الحزن لغة لا تحتاج إلى ترجمة.

طلبتُ منها الجلوس معي وقلت: ((إن ما أمر به أصعب من الحزن)).

- في كثير من الأحيان نذوب في صمتنا.
- أشعر وكأنكِ شاعرة.

تبسمت وقالت: ((لست كذلك، لكنني أم... وأشعر بكِ)).

- وماذا عن الحياة، ألا ترهقكِ؟.
- سيدتي، يوجد شعور يتوغل بداخلنا كل ليلة بهدوء – يبدو كالألم لا نعلم متى أتى ولكننا ندرك بأنه سيزول أو هكذا نظن... لكنه يظل معنا إلى فترة طويلة، قد يكون ذلك بسبب وحشة الوحدة... فأنا أستيقظ كل صباح وأشعر بالحزن على أنني ما زلت حيًا.

تنهيدةٌ مرهقة... هكذا كان تعبيرها، ذهبت للعمل.

كان أمرًا غريبًا، شخصان يتحدثان ليلًا عن مشاعر مشتركة.

لطالما كانت النادلات في "ويتلغون" مختلفات... التشابه الوحيد بينهن كان في تلك السترة السوداء... تلك الكلمات أحيت ذكريات داخلي كنت قد تركتها للوقت... كي يمحيها.

احتجت لذلك الحوار حقًا، كانت تخاطب روحي... إن عالمنا بسيط للغاية نسبة للعوالم الأخرى، قرأت كثيرًا عن أبعاد هذا الكون... وفي كل مرة أكتشف كم أننا سطحيون... فنحن لسنا مجرد أجهزة وأعضاء بل أعمق من ذلك كثيرًا.

كانت معظم الطاولات مكتظة بالأشخاص، كثيرُ منهم ما زالوا في الجامعة، كنتُ مثلهم فيما مضى، أفرح مع الأصدقاء... لكن عندما يشاهدني أحدهم الآن سيدرك كم أنا وحيدة، في الواقع كل ما أريده أن أعبر حزني لوحدي.

توجهتُ في أحدِ الأيام إلى الطبيب، أخبرته بما حدث لي في الفترة الماضية وعن السيدة كيت، قال لي: ((ربما ذلك الرجل لا يريد منها شيئًا، لا يريد أن يفكر فيها، لا يريد أن يهتم لأمرها)).

- من خلال حديثها لاحظتُ بأن كلماته عميقة وكأنه لم يرد بأن يلتقي بها قط لكن هذه هي الحياة.
- هذا صحيح، لا تنظري للأمور من منظورٍ واحد.
- لماذا أشعلت هذه الشمعة؟.
- يبدو بأن تفكيركِ بعيد سيدة كاثرين... ألم تلاحظي عند دخولكِ انقطاع التيار؟!.

نظرتُ حولي جيدًا كان المكتب شبه مظلم، قلت له: ((أشعر بالوحدة - وكأن الليالي البائسة تقطن داخلي... وهذا مؤلم)).

- سأخبركِ قصةً عن الألم سيدة كاثرين، ذات يوم أتى إلي شخص، كان طبيعيًا للغاية لكن مع مرور الأيام أخبرني بأنه كان يتألم من أشخاص لم يرد أن يراهم يتألمون ولو لمرة واحدة... أتعرفين من ذلك الشخص؟، إنه أنا... لقد

تألمتُ كثيرًا من مشاعري، لأنني ظللتُ أحسبها بداخلي، إلى أن... ماتت.

كان ينظر للشمعة وكأنها تشبهه، ففي لحظةٍ ما ستنطفئ وكذلك هو، سألته بحذر: ((هل هنالك أحدٌ في حياتك؟)).

كان جوابه حزينًا، حيث قال لي: ((أجل، فيما مضى سيدة كاثرين))...
احترتُ من حديثه فقد كان نابعًا من قلبه، أكمل: ((أحيانًا يكون الابتعاد جميلًا فهنالك ذكرياتٌ لا نريد خسارتها)).

- هل ما زلت تحبها؟، لأن شعورك يخبرني بأنها امرأة.
- بالطبع أحبها.
- إن كنت لا تريد خسارة تلك اللحظات الجميلة معها فستفضل البقاء، لكن ابتعادك مؤذي.
- في كل علاقة هنالك فترة، إما أن تصمد أو تبتعد... وهي لم تعد سعيدة معي.
- هل ما زلت تراها؟.

- لقد ماتت... لم أحب أحدًا كما أحببتها، لقد عشقتها وحدها، كانت نظرتي لها تختلف عن نظرتي للآخرين.

لم يستطع كبح دموعه... لقد أطلق جميع مشاعره المدفونة، كان ذلك صعبًا عليه.

غريبٌ هو أمرنا، في كل مرة كان يستمع إلي لكنني لم أعلم ولو لمرة بأنه كان يريد من أحدهم بأن يستمع له، أرجو بأن ينتهي حزنه... علمتني الحياة بأنه في الحب المرة الأولى تؤلم كثيرًا.

كانت شخصية الطبيب من الناحية الروحية تقع عند المنتصف، في كثير من الأحيان كنتُ أرى منطقته البيضاء، لكن اليوم أخرج لي جانبه السوداوي... يا إلهي هل الحزن يعانقني كثيرًا؟!، فكل من أعرفه حزين، ظننت بأنني الشخص الوحيد الذي نسى كيف يفرح، لكن كان الجميع جيدين في التمثيل عكسي تمامًا... كم هو صعب أن نتقمص شعور يخالف مشاعرك الدفينة.

لماذا لا تكون الحياة سهلة؟... "عاش سعيدًا إلى الأبد"، أدركت أن تلك العبارة ليست سوى جرعة وقتية لإبعاد الألم.

بعد انتهاء وقتي معه ذهبتُ إلى البحر... لم يكن يختلف عن الطبيب، كانت أمواجه قوية بدا لي بأنه أيضًا يبكي... من مشاعر الآخرين... من الأحلام التي صعب عليهم تحقيقها... من كل شيء تركوه بداخله، لم يفكر أحدهم كيف لهذا البحر أن يمضي يومه بكل تلك القوة، يظهر للجميع بأن كل شيء على ما يرام، لكنه ليس كذلك... دومًا يراه الآخرون هادئًا للغاية، يريد فقط بأن يشعر الآخرين بأن ما يمرون به ليس سوى يوم سيئ، نحن آسفون لم نكن نعلم بأنك تعاني، لكن أتعلم أمرًا، أنا اليوم قوية بفضلك، فقد قلت لي... إننا نحتاج للسقوط لكي ندرك جمال الوقوف، كنت أظن بأنك مجرد ماء كأي مسطح على هذه الأرض.

هنالك لحظات في هذه الحياة تُرهق أرواحنا، أتذكر حديث زوجي السابق عنها حينما قال "لقد حطمتني الحياة كثيرًا، مررتُ بأمور لم أودّ أن أقترب... أردتُ الموت بسلام، فلقد تعبت وأتمنى بأن ينتهي كل هذا"، كان حزنه صامتًا كتلك الرسالة التي وصلتني من السيدة كيت، عن طريق فتاةٍ صغيرة التقيتها جوار منزلي كُتِب فيها...

"هل سمعتِ يومًا بالحزن الصامت؟، في الواقع هذا هو حزني، حيثُ لا أتكلم، هو الحزن الذي الذي يفقدكِ معنى الحياة".

كانت السيدة كيت وزوجي السابق متشابهين في بعض الأشياء كالحزن الصامت، أدرك بأنه مؤلم، فهنالك فترة نحتاج فيها للوحدة، حيث لا أحد فقط نحن والليل... فهو أشبه بالتمثيل الصامت لكنه مرهق... نظهر للجميع كم نحن سعداء لكن لا أحد يعلم من نكون، إنهم يعتقدون بأننا نستمع لهم ولا نعاني... في النهاية نحن بشر لدينا مشاعر أيضًا وإنها تبكي.

علمتني الحياة بأنه لا يمكن لشخص ما أن يعطيك الحب... يجدر بك أن تبحث عنه وسوف تجده في طريقك، لكن لربما الشخص الذي تحبه يحب غيرك، وقد تحزن، تبكي وممكن أن تنهار، لكن الحياة تمضي، لا تقل بأنك لن تستطيع العيش مع من لا تحب... ستشعر بالإرهاق لكن تجاوز الحب فقد أدركتُ بأن الأحبة يموتون، لكن الذكريات لا تمحى... هي دومًا معنا، فأنا ألتقي بها كل مساء، فلا يمكن لأحد ما بأن يتجرد من مشاعره قد تختفي لوهلة لكنها تعود في لحظة ما.

في تلك الفترة لم تكن أيامي جيدة، أتذكر عندما وجدتُ سيارة مايك أمام المبنى أين يوجد مكتبي، طرقتُ على النافذة لعله يلحظ وجودي، فتحتُ الباب وجلست، كانت دموعه تنساب بسهولة، أخافتني للغاية فقلت له: ((عزيزي ماذا هنالك؟)).

لم يكن ينظر إلي وازداد انهمار دمعه، وبعد صعوبة في الحديث قال لي: ((أعتقد بأنه حان وقت مغادرتي)).

- إلى أين؟!.
- إلى الموت.

لم تكن تلك كلماته المعهودة، حتمًا هنالك خطبٌ ما، بادرتُ لمساندته: ((لا تقل ذلك أرجوك... أنا جانبك)).

- لست كذلك يا كاثرين... أنا مرتعب وتلك الكلمات لا أحتاجها.
- انظر إلي جيدًا مايك... أنا أحبك.
- أين ذاك الحب؟ أريد رؤيته.
- تريدُ أن تعرف حبي لك؟!... حسنًا أنت تعلم جيدًا بأنني قد تركتُ شخصًا كنتُ أنا حبه الوحيد، من أجلك أنت.
- وأين هو الآن؟! أخبريني... لقد مات وهو يبكي حبًّا لكِ.

صمتُّ في تلك اللحظة، لم أكن أتوقع أن يقول ذلك... غضبتُ حقًّا من مايك، ابتعدتُ منه على الفور.

سأتحدث قليلًا عن زوجي السابق، كان يبدو سعيدًا أمام الآخرين، لكن ذلك لم يكن يعني بأنه لا يموت من الداخل... كانت علاقتي به أشبه بالحلم، لقد كنتُ مدركة بأنه في أحد الأيام ستصبح علاقتنا جزءًا من الماضي ولن أشتاق لها، لكن لماذا أتذكره دائمًا؟، لقد أخبرته مرة واحدة بأنني أحبه... كانت لحظة مميزة في حياته، فما زلتُ أذكر ذلك البريق اللامع في عينيه.

كان صمته لغته... لقد مررتُ بالكثير حتى أترك تلك العلاقة، وبعد انتهائها كنتُ متأكدة بأن حياتي ستمضي لا محالة، لكن حياته توقفت عندما افترقنا.

في الواقع حديث مايك آلمني للغاية شعرتُ بأنني أنانية، بكيتُ كثيرًا تلك الليلة، أتذكر حضن جين الدافئ عندما سمعتْ بكاء روحي، لقد أردتُ بأن يهتم بي أحدهم كثيرًا، قالت لي: ((في الواقع لم تجعلني الحياة أتعرف بوالدي بشكل أفضل، لكنه ترك لي جزءًا منه وكأنه يدرك بأنه يومًا ما سأريد محادثته)).

وضعت بجانبي مذكرات... كانت لزوجي السابق، مكثتُ في فراشي وبدأت القراءة.

أتذكر تلك الكلمات المؤلمة... كان يخاطب روحه حيثُ كتب...

" كانت عندما تشعر بالخوف تمسك يدي فتهدأ، وكأن الهدوء يسكنني، لقد كنتُ أفعل أي شيء تحبه... لقد كنت أتجسد بالقوة أمامها، وفي وحدتي أبكي كثيرًا... كنتُ أشعر بأن كلمات الحزن عالقة في حنجرتي، وعند شعورها بالألم كنتُ أرجو بأن أتألم مثلها... لقد أحببتها لأنها مختلفة، فكل الأشياء التي شعرتُ بها خلال سنين طويلة، شعرتْ بها خلال سنة واحدة، كان بكاؤها هادئًا فهي تبحثُ من خلاله عن ذاتها، لم تكن لدي الجرأة الكافية لقول ذلك لها، لكن اليوم سأخبرها بأن أحلامي توقفت في هذه الحياة منذ مدة طويلة... لكن ما أن تعرفت بها حتى أصبحت أمنياتي تنتعش فكانت حلمي الأبدي، كان وجودها كافيًّا بحد ذاته... هنالك غابةٌ بداخلي إنها تحترق وقد أهلكتني... لقد حاولتُ إطفاءها لكن لم أستطع، كنتِ أرغب بذلك بشدة، لقد ماتت أحلامي بداخلها".

كانت مجرد صفحة واحدة فقط!، ماذا لو قرأتُ المذكرات كاملة؟، لم تتوقف دموعي عن السقوط - كان في كل دمعة ألم يزول، كانت معاناته أشد مني لكنه مختلف، أردتُ أنا أنام بعمق حتى ينتهي حزني.

فمهما كانت أيامي، أصبحتُ أبتعد عن الآخرين ليس لأنني لا أريد رؤيتهم، بل لا أريد بأن يراني أحدهم بكل هذا الضعف، فأنا لم أعتد على ذلك، لا أحد يعلم بحجم المعاناة التي في حياتي... فلطالما كنتُ ماضيًا، حيثُ حاضري ميت ومستقبلي يكتب حزنًا.

اختلفت حياتي كثيرًا، أصبحتُ أكره رؤية الجميع ولا أستطيع إخبارهم بأن يبتعدوا... في كثير من المرات أخنق كلماتي... إنها تريد أن تظهر لهم بأني ما عدت أرغب وجودهم... أريد أن أستيقظ يومًا ما كورقة خريف أبعدها الهواء إلى مكان تجهله ولا يعرفها أحد.

كانت أحلامي كثيرة وأجهضتها مرارًا... نحن البشر لا نغير غرائزنا، لطالما تعلمنا الهزيمة.

أدركتُ بأنه يوجد أشخاص لا نكترث لهم في هذه الحياة بينما نحن نمثل عالمهم، فهم كالليل يهتمون بالآخرين.

نمتُ تلك الليلة والحزن يجتاحني... يا إلهي كم كانت مؤلمة، شعرتُ بأن صدري ثقيل، لكن لم تدم كثيرًا، فقد أيقظني مايك، نظرتُ إليه بلا مبالاة قال لي: ((هنالك أيام في حياتكِ قد ترينها لا تثير الاهتمام، لكن كل يوم يمضي وأنا معكِ أشعر بالسعادة)).

- مايك توقف أرجوك، لقد تألمتُ كثيرًا فقط... لا أستطيع أن أتحمل أكثر.

شعر بالحزن من كلماتي، لكن قلبه أجبره على الحديث، حيث قال لي: ((لطالما كان برفقتي الكثير من الأشخاص لكنني وحيد، لا أحد يسمعُ بكائي... ولوهلةٍ ما قررتُ الابتعاد عن الجميع... حتى أنتِ)).

- كيف تقرر ذلك؟، ولماذا كنت تريد الموت؟.... انظر إلي جيدًا فأنا لا أستطيع العيش دونك.

- أرهبتني فكرة أتت إليّ يومًا ما بأنكِ ستغادرينني...
- مايك أنا آسفة، لأنك تمر بكل ذلك دون أن أشعر بك، لكن لا أقوى على الابتعاد عنك.
- سأخبرك أمرًا، حينما أستمع لأغنية ما، يعتقد الجميع بأنني مهتم بها، لكن في الواقع... أنا أهرب من هذا العالم.
- كنت تخبرني بأنني عالمك.
- كنت أقول ذلك، لكن يبدو بأنه... يتلاشى.

كانت مشاعره تتكلم، وكأنها أغنية، أنا شاكرة له فلقد منحني حبًّا أبديًّا... ما زلت سعيدة معه.
في تلك الفترة كنت أمتلك ألم روحي وكنتُ أصمت، ظنًا مني بأنني هكذا سأنتصر، لكن تلك كانت إحدى هزائمي... كنت أغرق في دموعي كل يوم، حتى ظلي ابتعد عني، لا أحد يعلم كيف تنتهي معاركي، أحتفظ بذكريات وضعتها للأبد في حياتي، لا أريد أن تكون مجرد ذكرى وتمضي... لم أتمنى أن أخسر مايك، فلم تنطفئ رغبتي تجاهه...

كانت تلك الفترة مرهقة لجل ما أريد هو النوم، لقد تعبت من صوت قطرات المطر وكأنها حزينة أيضًا، لقد أرهقت من كثرة البكاء - أشعر وكأن قلبي يقول لي توقفي فأنا أتألم!، لا أريد تذكر زوجي السابق... أريد بأن يخبرني أحدهم بأن الأمور ستكون بخير.

أتذكر عندما دعاني الطبيب إلى منزله، كان يسكن في حي مترف، أحضر إلي كوبًا من القهوة وقال لي: ((تبدين جميلة اليوم، سيدة كاثرين)).

- شكرًا لكِ.
- لم أركِ منذ فترة، فأخبريني كيف كانت تلك الأيام.
- كما تعلم، إنها تمر سريعًا أو ببطء.
- بالطبع ذلك يرجع لمشاعرنا تجاه الحياة.
- أيها الطبيب، لماذا عندما نريد الأفضل يحدث لنا الأسوأ؟.
- ذلك عقلكِ الباطني... في الواقع تحدث الأمور عندنا تريدُ الحياة ذلك.

- أريد بأن تكون حياتي رائعة... فقط كما كانت.
- إذا اجعليها كذلك.
- لا أستطيع جعلها كما كانت، لا أستطيع مساعدة روحي لا أستطيع... لا أستطيع أن أكون أمًّا جيدة، لا أستطيع أن أكون زوجة أو حتى ابنة للأسف.
- تبدين متأثرة سيدة كاثرين، هل حدث شيء ما مؤخرًا؟.
- وجدتُ مذكرات تعود لزوجي السابق، كانت كلماته تتحدث عني، "لقد مات قلبي"... كتب تلك العبارة بألم... كيف له بأن يقول ذلك؟!... أنا آسفة من أجله لقد أحب الشخص الخاطئ.
- يبدو من حديثك بأنه أحبكِ كثيرًا.
- كان حبه حقيقيًّا لم أعرف معنى ذلك قبل أن ألتقيه، كان حبه رائعًا... كان يعطيني كل شيء من دون أي مقابل... لم يكن يريد من أحد بأن يبادله الحب، كان حبه فريدًا، كان يصمت وينظر إلي وكأن الجمال أُخِذ مني.
- هل اشتقتِ له؟.

- لم أعلم ما الذي تعنيه الحياة إلا معه، لكن ابتعادي منه هو الأفضل لنا.
- لماذا؟.
- لأن حبه سيئ وأنا امرأة حزينة... هل يمكننا أن نتوقف لبرهة من فضلك؟.
- بالطبع سيدة كاثرين.

لقد عاش علاقة عميقة... كان ظلي أحد أطرافها، في بعض الأحيان كنت أدرك بأنه ليس بذلك الغباء الذي يَخيله لي عقلي... فهو على علم تام بأنني... أفكر بشخص غيره، لكن لم أستطع أن أبوح له... ليس بعد، لربما كان يريد الابتعاد عني أيضًا فهو يعلم جيدًا مساحتي في تلك الحياة الزوجية... لقد كانت مشاعره تؤذيه، كان ضعيفًا أمامها.

لم أرد أن يتملكني الضعف مجددًا، إنه الكبرياء، لقد أدركتُ بأن بعض المشاعر لا تكتب... جلّ ما أتمناه حياةٌ خيالية، ظللتُ أتذكر وحدتي كثيرًا إلى أن قاطعني الطبيب حين قال: ((هل نكمل؟)).

- أجل.
- وماذا عن ذلك الرجل... الذي أخبرتكِ به السيدة كيت، هل من جديد؟.
- بحثتُ عنه كما وصفته لي... لكن لا يوجد أحد بتلك الملامح وكأنه خيال!.
- وهل أخبرتيها بذلك؟.
- ليس بعد لكن قبل قدومي إليك وجدتُ رسالة منها، كتبت فيها...
-

"سيدة كاثرين، أعلم بأنكِ ستواجهين صعوبة في العثور عليه، لكن حتماً ستجديه، قد يكون في أي مكان، في الموسيقى ربما".

- لديها أمل فيكِ.
- هي مؤمنة بأنه موجود... لقد كان يبعد عنها الحزن، حيث تبتسم برفقته وتبكي حين لا تراه لفترة.
- سيدة كاثرين، أنتِ نجمتها التي لا تنطفئ.

- ربما لذلك هي تزورني ليلًا.
- رغم ما تمرين به أرى ابتسامتكِ، أتساءل كيف لكِ كل هذه القوة وجراحكِ لم تلتئم؟.
- أنا محطمة، لا أعلم شيئًا عن نفسي وكأن جزء مني قد... مات، أريد أخذ روحي من كل هذه الدموع.
-

قام الطبيبُ من مكانه وأدار الموسيقى وقال لي: ((ارقصي سيدة كاثرين، فإن الموسيقى تتأملكِ)).

الرقص شيء جميل، كانت الموسيقى التي أدارها الطبيب هادئة وسلسة، شعرتُ بشيء خافت يخرج من داخلي.

يبدو بأن بعض من مشاعري قد تحررت... إنها تريد الرقص على أسطوانة الفونوغراف، أغنية ذات طراز قديم تعود إلى "دين مارتن"، كانت كلماتها تدعو أناملي للرقص.

رقصتُ إلى أن شعرتُ بأنني انتشلتُ آلامي، كانت أحزاني ترقص لعلها تنتهي يومًا ما، أتذكر وصف مايك للحزن حينما قال لي "لا تحزني، فحزنكِ يبكيني".

في إحدى الأيام قرأت مجددًا مذكرات زوجي، ففي المرة السابقة انتشلتني من الحياة وكأنني في عالم آخر ولكنها بطريقة ما تؤذيني، كتب فيها...

"عيناكِ مثيرة للغاية، أودّ أن أنظر إليها... فطالما كانت تبقيني حيًا، لا أريد أن أبتعد عنهما، أنا أعشقكِ... فأنتِ الوحيدة التي أراها بصمت، فلا كلمات تصف لقاءنا... إنني أحبي الليل كثيرًا يا عزيزتي، تمر من خلاله ذكرياتنا التي لطالما أحببتها، لكن منذ مدة لم يعد هنالك أحد يشاركني الليل... أصبحت حياتي باردة... أتساءل ألا يشعر البحر بالبرد؟!، كانت مشاعري صامتة لكن عندما، يأتي المساء فإنها تبكي... كم هو مرهق بكاء المشاعر، كان ليل الشتاء يمر من خلالي، لطالما يجدني وحيدًا، في كل يوم أردد في نفسي... هل الوحدة جيدة أم سيئة لي؟، لقد عشتُ حياة أفضل معكِ أما الآن - فأشعر وكأن هنالك شخصًا ميتًا بداخلي... يبدو بأن جسدي تابوتٌ له، كم هذا غريب".

توقفت قليلًا عند تلك الكلمات " ألا يشعر البحر بالبرد؟!"، طيلة حياتي كنت أرى نفسي أشبه البحر... قد أكون واضحة للجميع لكن بداخلي صراع، مشاعر متخبطة، وروح تميل إلى الجزء اللاواعي... ونبضات قلب توهمني... تتسارع تارة ومرة تختفي... حياتي الداخلية مضطربة كالبحر تمامًا فعمقه هائج وسطحه هادئ.

يحزنني مرور هواء الحزناء عليه... نظر إليه زوجي السابق بعمق، لم يكن البحر فارغًا قط.

لم تتماسك مشاعري فبكيت، كم هو صعب عندما تتكلم الدموع، فلم تكن ليلتي هادئة، فظلت مشاعري تعصف بداخلي وكم هذا مؤلم، أتذكر خروجي إلى الشرفة... كنتُ أبحث عن ذاتي في الأرجاء... لم أنتبه لقدوم مايك إلا بعدما تحدث وقال: ((في كل مرة أشعر باليأس آتي هنا، في بعض الأحيان أحاول أن أجمع ذكرياتي الجميلة التي اقتلعها مني الهواء)).

- وماذا عن السيئة؟.
- هي ملجئي.... في كل مرة أتذكرها أدرك بأنني إنسان.

- مايك، أنا أتألم... هل تعلم ذلك؟.
- عزيزتي لا أحد يبقى في الليل وحيدًا إلا المتألم.
- أنا أرى في الليل ملاذي... أنظر للسماء فأرى من أحب، أتذكر لحظاتي الرائعة، وفي كل نجمة أرى قصة.
- حزينة أم سعيدة؟.
- ... حزينة يا عزيزي.
- اغمضي عينيكِ واستمعي للرياح، إنها تحمل مشاعر برفقتها.

أغمضتُ عينيّ وتركتُ روحي تخاطبها، "أنتِ الوحيدة التي أريدها"، لقد سمعتُ تلك العبارة!.

- مايك أسمعت ذلك؟!.
- لا، لكن إنه شعور رائع.
-

ما حدث كان مبهراً، لكن ماذا يعني ذلك؟.

إن مشاعري مرعبة، يا إلهي لقد أرهقت... متى يغادرني هذا الحزن، لقد شعرتُ بالخوف، تمنيتُ لو كان هنالك أحدٌ يخبرني بأن الحياة مرهقة، لكنها تسعدك من حين إلى آخر، لقد افتقدت لمن يجعل يومي رائعًا... يتأمل عينيّ ويخبرني بدهشة بأنني أجمل امرأة في العالم وعندما أحزن يحضنني، كم أنا بائسة.

أنا امرأة لطالما هوت بحياة مختلفة... مختلفة عن الحياة المجتمعية، متمسكة بأحلام إبداعية تشكلت من نسيج كان يطوف في منامي... أنا امرأة تعشق أن يتأملني أحد كعاشق ما للوحة مشهورة للرسام "ليوناردو دافنشي"... ينظر مطولًا إلى تلك التفاصيل التي نحتت بروعة الخيال وجسدت بتلألأ اللؤلؤ، أنا امرأة تُكتب الأغاني من جمالي البهيج، فلست مثل الأخريات، كنت كالقمر، فمهما أظهرت السماء مفاتنها... طليت إليها فاقتربت النجوم حولي.

كم هي صعبة تلك الأوقات التي قضيتها وحيدة، لقد اشتقتُ لطفولتي فقلد ركضت في طريق الحياة طويلًا، لكن لم أصل إلى ما أريد قط - تبدو أحلامي كالسراب، ولطالما بكيتُ في الليل،

لأن الحياة لا تتوقف عند حزني ولكنها تترك في داخلي حزنًا مؤلِمًا، وكأن أحزاني لا تكفي، لقد تركتُ كل شيء يسعدني فيها وتعلمتُ الاكتئاب... كم يؤلمني للغاية، فهو مختلف... لا يشبه الحزن، يجعلني أتمنى ولو للحظة ما بأن أخرج من نفسي، أشعر بأن حياتي توقفت في مكان ما، فهو يصعب وصفه فقط يحدث لك، لا أريد لكل ذلك الألم بأن يكون برفقتي دائمًا... أريده أن يتركني.

الحزن لا يتوقف، هكذا هي الحياة... تصفُ نفسها، أريد أن أتجرد من مشاعري، فتلك الهالة التي أنتني لا تنتهي - تبدو معتمة، أصبحت حياتي مخيفة ومظلمة، لا أعلم لماذا ما زلتُ حية؟.

أتذكر تلك المقصورة، كنتُ متجهة إلى منزلي... ظننتُ بأنني وحدي لكن لاحظتُ السيدة كيت، تبتسمُ لي، اقتربت مني وقالت: ((سيدة كاثرين، أتعلمين ما الذي يجعلني متمسكة بأحلامي؟... إنه ذلك البعيد، حينما أنظر للسماء أراه متسلق نجمة ما، أنا غارقة في حبه وهذا يشعرني بالانتماء، أتذكر حينما

كان يأتي كي يشاهد رقصي... كانت الموسيقى حزينة - وكأن العازف ينتظر حزننا بأن يختفي... لكن يبدو بأنه دائم، لقد يأستُ من الحزن لكنني عالقة فيه))،

- كم هذا غريب، إن مشاعرنا متشابهة، أنا أيضًا لست بخير... منذ فترة كنت أعتقد بأن الحياة على ما يرام، لكنها لم تكن كذلك... لقد كرهتُ حياتي.
- جربي البكاء، فهو الطريقة الوحيدة التي تتحدث بها المشاعر.
- وماذا عنكِ؟.
- لقد توقفت... لم أعد أمتلك تلك الدموع الحزينة، ما زلت أبحث عنه كي أخبره كم أن ابنتنا كبرت... تؤلمني رؤيتها هكذا، فقط تريد أن تراه ولا أستطيع أن أخبرها بأن نتوقف عن هذا الحلم... إن أحلامها ممطرة.

"لم أعد أمتلك تلك الدموع الحزينة"... تكررت تلك العبارة في ذهني مرارًا وتساءلت في داخلي.. كيف نتوقف؟!، لقد وجدت من أجل لحظات كثيرة وتلك أهمها، ما أقسى أن تتركك

دموعكِ في نقطة ما، تأملت عينيها... كانتا تلمعان وذلك البريق يزيدها جمالًا... سحقًا ليومٍ تبكي فيه تلك الجوهرتين... لقد غصتُ في أعماقها وغصت وغصت... أردتُ أن تمتزج روحي بها إلى أن نصبح كالحورية... كل نصف يكمل جمال الآخر.

قلت لها مقاطعة تأملي: ((ماذا؟!)).

- أنتِ لا تعلمين عدد المرات التي بللت بها وسادتها من أجله.
- ستشعر بالنوم عند نهاية الليل.
- أجل... ستنام أحلامها، مؤخرًا كانت مصابيح الليل لا تنطفئ... كل ذكرى تشعل نورًا حزينًا، تمنيتُ حينها لو كان بإمكاني التحليق... أريد أن أكون تحت سماء أخرى.
- لا أعلم كيف أخبركِ بذلك...
- لم تجديه أليس كذلك؟... لا بأس لقد حاولتِ لكنه لا يريد أن يكون معنا.

كانت امرأة قوية، خلال لقائي بها لقد حاولتْ بأن تكون بخير، لكن بدا الحزن واضحًا على عينيها، كنت أقول بأنني لن أنضجُ أبدًا، لكن أصبحت كذلك بسبب الأيام الحزينة التي ظننتُ بأنها لن تمضي، لا بأس بالحزن لكن لا أريد أن أكون مكتئبة، أشعر باليأس، من الأشياء المرعبة التي حدثت لي.

بعد مغادرة السيدة كيت، توقف القطار عند محطة مجهولة... لم ألحظ ابتعادي عن منزلي، نزلتُ من القطار ونظرتُ حولي، كان الظلام حالكًا، لا يوجد أحدٌ هنا... كانت تمطر، شعرتُ بألم، إنني مرهقة... لا أستطيع تحمل كل هذا الحزن، لماذا الليل يغطيني بالكامل؟، ركضت مسرعة خارج المحطة، كنت خائفة ظللتُ أنظر وأتساءل أين أنا؟، نظرتُ إلى إحدى المتاجر... أريد أن أعلم إلى أين وصلت، وقفتُ أمام المتجر، على ما يبدو بأن المتجر مقفل، كانت جوار الباب مرآة نظرتُ فيها... تفاجأت إنتِ أحمل ملامح السيدة كيت، ابتعدتُ مسرعة، أخذتُ تذكرة... أريد الخروج من هنا.

وصلتُ منزلي مرتجفة، توجهتُ إلى المغطس... أردتُ أن تبتعد عني السيدة كيت، لقد حاولت بألا أراها مجددًا، لا أعلم كيف أصبحت جزءًا مني.

كنتُ مختلفة ما عدت أعرف نفسي!، أتذكر قدوم مايك في تلك اللحظة، انتشلني من المغطس... كان حزينًا على ما آلت به حياتي، قلت له: ((أريد أن أموت، لم أكن أكثر شغفًا به قبل أن أصادف السيدة كيت... لم أعد أحتمل ذلك... لا أعلم لماذا يحدث لي كل هذا... أنا مكتئبة للغاية)).

- عزيزتي تماسكي قليلًا... أريد أن أخبركِ أن لا تكترثي لها.
- إنها بداخلي!... في كل مرك أراها يصيبني حزن ما.
- حسنًا كاثرين، منذ اليوم لا أريدكِ بأن تريها.
- ألا تدرك ذلك، إنها جزء مني... حتمًا سنلتقي في مكان ما.
- عزيزتي إنها خيال... لا وجود للسيدة كيت، لقد بحثتُ عنها كثيرًا، لا يوجد أحد كما وصفته لي.

أصابتني الحيرة... كيف يمكن ذلك!، أكمل حديثه لي: ((تحتاجين إلى طبيب آخر، حالتكِ تزداد سوءً، الجميع قلقون عليكِ)).

" لا يوجد أحد باسم السيدة كيت"، تدحرجت كثيرًا بين أفكاري وازدادت آلآمي، كيف ذلك؟!، لقد كنت على تواصل معها لفترة طويلة... ليست خيالًا كما أخبرني زوجي... إنها موجودة في هذا العالم، فمشاعرها مثلي... حاولت أن أبعد مني اعتقاد مايك لكن صدى صوته يقترب وينفر مني بشكل متسارع كموجة تتسابق مع الأخريات... أصبحت تائهة، غارقة في داخلي.

انهرتُ أمامه، حاولت إخفاء ضعفي، لكنني إنسان وذلك الشعور خلق معي... وقعت أرضًا وتمشت عبر جسدي رعشة، كانت الدموع تطغى علي لم أستطع التحمل كثيرًا، قلتُ له: ((أرجوك ساعدني، أنا أحتاجك لا تتركني هكذا)).

كانت حياتي غريبةُ للغاية، ففي تلك الفترة أصبحتُ بعيدة عن الآخرين، حاول مايك مساعدتي كثيرًا... كم هو زوج رائع.

تعود بي الذاكرة إلى الماضي، حينما قابلتُ مايك في المدرسة قال لي في لقائنا الأول "كاثرين، ابتسمي دومًا "، لم تكن مجرد كلمات بسيطة بل كان يخبرني من خلالها، بأن الحياة قاسية، لكن مجرد ما نبعد الحزن منها ستكون أفضل، فظللتُ أبتسم كما أخبرني.

۞ ۞

داخل "ويتلغون" شخصان، يبدو وكأن زواجهما قد اقترب، فهذه السيدة تحدق في خاتمها باستمرار، سعادتها أرجعتني للماضي...

أتذكر ذلك الصباح الهادئ، فتحتُ النافذة، كانت الشوارع خالية ورائحة المطر الجميلة... كان الهواء يلامسني - وكأن الحياة اشتاقت إلي... نظرتُ في الأنحاء، كان مايك ينظرُ إلي أخبرني بأن أقابله الآن... ارتديتُ معطفي وركبنا السيارة وذهبنا إلى مكان بارد، الضباب يعم الأجواء، بدأت الشمس تستيقظ من نومها، كان منظر المكان ملهمًا... كنتُ أرتعش، أمسك مايك بيديّ وقال لي: ((عزيزتي.... لقد أحببتكِ دومًا، أريد أن أمضي كل يوم في هذه الحياة معكِ... الحياة معكِ مختلفة، أريد أن أخبركِ أمرًا... أعتذر لكِ على كل لحظة لم أكن فيها برفقتكِ، أنا مغرم بكِ)).

لقد بكيتُ فرحًا ليس حزنًا، أنا أحبه، لم أكن أشعر بذلك لكنه فعل كل ما كان يسعدني لكي أتخطى حزني، لا أريد بأن أكون مع شخص آخر... الكلمات لا تكفي لوصف ما تقوله مشاعري، لم يكن حبنا مجرد قصة، بل أكثر من ذلك فلقد كان سعادتي الأبدية، لقد كنا مثل العازف والأغنية كل منا يشعر بالآخر.

أحب ليالي الشتاء الطويلة، تذكرني بالطفولة، ما زلت كما كنتُ حينما تأتي... لقد كبرت وتغيرت وتحطمت كثيرًا، فتعلمتُ بأن الاكتئاب لا ينتهي، وفي كل شتاء يتجدد معي، قد أكون هادئة لكن حتمًا هنالك معركة مستمرة بداخلي.

في تلك الفترة حاولت أن أبتعد عن ضجيج الحياة من خلال مايك... اكتئابي يتلاشى عندما أكون برفقته، لم يكن مجرد زوج بل أكثر من ذلك... كانت علاقتنا كالموسيقى كل من يستمع لها يفرح، وكل من يشاهدنا يتأمل كم نحن رائعان، وعندما نبتعد لوهلة ما تتملكني الكآبة.

لطالما أحببتُ الليل، فعندما أحزن ولا أجد أحدًا جواري أجده برفقتي دومًا... لم يكن يخفف عني، لكنه يجعلني أدرك قيمتي لدى الآخرين، توقفت رسائل السيدة كيت عن القدوم، أما الطبيب فلقد لاحظ تحسني بشكل سريع، في إحدى المرات تمنيتُ لو كنتُ معزوفة... معزوفة تستحق أن يستمع لها الجميع، معزوفة حزينة.

في ليلةٍ ما شعرتُ بإرهاق بداخلي، أردتُ قراءة صفحة من مذكرات زوجي السابق لعل ما في أعماقي يهدأ ولو قليلًا، كتب...

"كانت الموسيقى تخفف أحزاني، أشعر وكأنها تحمل في طياتها مشاعري الميتة... أجل تلك المشاعر التي احتفظت بها لنفسي... تلك المشاعر التي كانت كعاصفة في ساحة حرب تسمى قلبي، ظللتُ أكتب رسائل عدة... لروحي، أريد أن أعرف متى ستغادرني؟، في كل مرة أحاول فيها الابتسام أجد الحزن برفقتي، فأرسم ابتسامة عميقة... مليئة بالدموع، وكأن البكاء يزيدها جمالًا، أجل تلك هي ابتسامتي، كان شعوري الوحيد هو الحزن، لذلك هكذا أكتب مشاعري".

كانت مشاعره كالأغنية الحزينة، لم يكن يستطيع أن يشعر بالسعادة، كان يعشق الليل.

تعود بي الذاكرة لتلك الأمسية الباردة، كنتُ للتو قد أنهيتُ الجامعة، رأيته من نافذة المكتب ينظر إلي بخجل، خرجتُ لأتحدث معه وكان كلامه نابعًا من قلبه، قلتُ له: ((أهلًا عزيزي... ماذا بك؟)).

- أنا أحبكِ يا كاثرين، أحببتُ عينيكِ... أحببتُ روحكِ، أحببتُ رفقتكِ لي، سأظل متمسكًا بهذا الحب.
- وأنا أحبك أيضًا... هل قطعت كل تلك المسافة لتخبرني بذلك؟!.
- أجل، إنها ليلة رائعة، وأردتُ أن أخبرك بذلك قبل...
- ماذا هنالك يا عزيزي؟.
- أن أغادر هذه الحياة... أنا أحتاجكِ بجانبي فهذه الحياة ليست آمنة لي.
- هل تشعر بالأمان معي؟.
- بالطبع، فأنتِ أنا... بالأمس في الثالثة صباحًا كنتُ ماكثًا في فراشي أخبر نفسي بأنني أعشقكِ.

لقد كان خائفًا من خسارتي وها أنا اليوم بعيدة عنه، أنا آسفة لأنني لم أحبه كما أحبني، لم يكن يعرفني، لكنني احتجته... لقد وقع في حبي وغادرته، لقد ابتعدنا لفترة طويلة نسيت فيها كيف يبدو... لقد اختفت ملامحه من ذاكرتي، وكأنه لم يكن يومًا جزءً من حياتي.

بعد انفصالنا لم نلتقِ... إلى أن التقى بسوزان وجين، تعرفت به ابنتي جيدًا، كان من الصعب عليها بأن ترى والدها بعد أن كبرت... دعته ذات مرة جين إلى حفلٍ شواء العائلة، فبعد مدة طويلة قابلته بكلماتٍ بسيطةٍ، قلتُ له: ((إنك تبدو رائعًا... كما كُنت يا عزيزي)).

- وأنتِ أيضًا.

هكذا كان رده... إنه يحمل داخله ألم، كان يشعر بالغربة وكأنه لم يعد يعرفني، كانت عيناه تلمعان... للحظة ما ظننتُ بأن دموعه ستسقط، لكنه يعشق الكبرياء لذلك صمت، وظل ينظر إلي بتأمل وكأنني نجمة سقطت من السماء... لقد كبرنا، كان وجهه يصف حجم المعارك التي خرج منها، كان يحاول بأن يلحظ

أحدهم حزنه، لكن لا أحد يعرف صمته كما أعرفه أنا... لقد كان قلبه يبكي، اقترب مني مايك، كان يريد بأن يقدمني لبعض الأشخاص، نظرتُ إليه، كان يبتعد من المكان.... لقد تجاوزني في تلك اللحظة.

أنا امرأة تعشق الاهتمام، بدأتُ أفكر فيه... هل يقضي اليوم وحده؟، بعد تلك الليلة لم يعد له أثر.

لقد كان الرجل الذي تبحث عنه السيدة كيت مشابهًا لزوجي السابق، أتذكر بأنني أخبرتُ الطبيب بذلك... في تلك الزيارة دار بيننا حوار شاق، قال لي: ((إذًا سيدة كاثرين، أنتِ ترين بأن السيدة كيت حقيقية، وليست من صنع الخيال؟)).

- أجل، لم نعد نلتقي بسبب ابتعادي عن الجميع، هي لا تعلم أين أنا... ربما تبحثُ عني لكن حتمًا سأجده اليوم.

-

في مساء ذلك اليوم قابلتها أمام منزلي، قالت لي: ((سيدة كاثرين، كنت أبحث عنكِ كثيرًا... لم أجدكِ في المنزل، أرجو أن تكوني على ما يرام)).

- أجل أنا على ما يرام فقط... أردتُ الابتعاد قليلًا.
- هل علمتِ أين هو؟.
- ليس بعد، لذلك أنا هنا.
- كيف أساعدكِ؟.
- أريدكِ بأن تخبريني بأمر مميز فيه.
- كان رجلًا حزينًا، إذ رأيته ستعلمين ذلك فور مشاهدته... حينما يشعر بالوحدة كان يمضي الوقت مع نفسه.
- وماذا كان يشبه؟.
- يشبه البحر أيضًا... كانت مشاعره تطل على نافذة ما، هكذا يصف شعوره لي.
- شخص يحب الحزن.
-

كيف سأجد شخصًا كهذا؟، فأنا أقطن في مدينة الأحزان... الجميع حزين، أتذكر ذهابي إلى جادة "ساديبرغ" حيثُ تتحدث المشاعر كثيرًا.

كانت باردة والإضاءة خافتة، أرى بائعات الهوى يتجولن... كأنني في عالم آخر، الجميع متشابهون، المعاطف السوداء ذاتها، لا ابتسامة... كل وجه يحكي عن شعور أصابه، أستمع لصوت ترانيم... أجل إنها قادمة من كنيسة ما، رأيتُ أحدهم يتجه نحوها... نظر إلي لوهلة وكأنه يعرف من أنا، تبعته، جلس في المقاعد الأولى وظللتُ أنظر إليه، كان شخصًا غريبًا، لوهلة ما لم أجده أمامي، وكأنه أدرك بأنني أتبعه...

خرجتُ وأنا أنظر لعلني أراه في مكان ما، كان هدوء الليل مخيفًا، ويبدو بأنه طويل للغاية... فجأة ظهر إلي من عمق الظلام... لقد ظننت بأن الليل قد جسد أمامي، قال لي بنبرة متعبة: ((لماذا تبحثين عني؟... أعلم بأن كيت قد طلبت منكِ ذلك)).

- أنا محامية، فقط أقوم بعملي.

أشعل غليونه وكان ينظر إلى الجهة المقابلة، كان ذا رائحة جميلة، قال لي: ((هل سمعتِ غناء الليل من قبل؟... تُعزف الموسيقى كي تزيد من بريق الليل)).

- لماذا تركت عائلتك؟، لديك زوجة جميلة وابنة رائعة.
- لقد أرهقت... أنا مليء بالحزن، مليء بالمشاعر، مليء بالكآبة ولا أريد لهم أن يصبحوا مثلي.
- إن ابنتك تريد أن تراك.
- لقد أغلقت نافذتي عنها... إنني أراها من حين لآخر لكن لا أريد لها أن تعرف من أنا... مشاعري قد تبددت، وهي أنثى تبحث عن السعادة.
- ألم تعد تملك تلك المشاعر؟.
- فقط الألم يا سيدتي.
- أين منزلك؟.
- منزل!، منزلي هو الأرصفة... منزلي مقاعد محطة القطار... منزلي هذه الجادة، قد يكون في أي مكان.
- أنت تشبه زوجي السابق، لكنه كان شخصًا رائعًا... وماذا عن زوجتك؟... أريد أن أخبرها بأنني وجدتك.
- ما زالت كما هي... جميلة، هل رأيتِ التماع عينيها؟، أنا آسف لا أستطيع الاستمرار مع سيدة مثلها.

- أنت تحبها حقًا، لكنك لا تريد أن تكون برفقتها... لماذا؟.
- سأخبرك شيئًا... هذا الليل الذي يغطي السماء، تملؤه المشاعر، هنالك شخص وحيد، هنالك حب قد بدأ أو لربما انتهى، هنالك كآبة أبدية، ألا تعتقدين بأنه يشعر بالإرهاق من كل تلك المشاعر؟... أنا كالليل تمامًا ولا أريد أن أجعلها تحزن.

كنتُ أراها من خلال عينيه، لم يكن قويًا، قلتُ له: ((هل قلبك محطم؟)).

- بل توقف، أصبح يتأمل المارة، لعله يجد ذاته في أحد ما.

تركته تلك الليلة وأنا أفكر فيه، لقد ابتعد لأنه يشعر بأن حزنه له، لا يريد لهما أن يحزنا أيضًا، فعل كل ذلك من أجلهما، وترك نفسه تبكي، الحياة مؤلمة... أنا آسفة لفقدان متعتها.

توجهتُ إلى عيادة الطبيب، كان على وشك المغادرة إلى مكان ما، كان مندهشًا لرؤيتي، قال لي: ((أهلًا سيدة كاثرين)).

- لقد قابلت ذلك الرجل... إن السيدة كيت حقيقية، لم تكن من نسج الخيال.
- حسناً... تفضلي أخبرني ماذا جرى؟.
- لقد كانت حياته ممطرة... أدرك بأن مشاعره لم تخرج قط، لطالما كانت داخله... لم يكن يعرف كيف يعبر لها عن حبه... إنه حزين، لديه حلم بأن يغادر هذه الحياة.
- هل هو من هذا العالم؟.
- كانت السيدة كيت تقول بأنها كآلة الكمان... لقد أدركت أخيرًا بأنه كان المعزوفة.
- ومن يكون العازف؟.
- حتمًا إنها الحياة.

خرجنا من مكتبه إلى الشارع، كانت تمطر، نظر الطبيب إلى السماء، ثم قال: ((دومًا يكون لقاؤكِ ممطراً)).

- إنهم يبكون.
- من هم؟.
- البائسون.

ذهبنا إلى محطة القطار، كانت مزدحمة للغاية، قلت له: ((أتعلم... حينما أستمع للموسيقى، أشعر بأن كل شيء حولي يصبح سعيدًا)).

- لقد تغيرتِ كثيرًا.
- بالطبع أيها الطبيب، هكذا هي الحياة... تمضي.

وصلتُ منزلي ومشاعري مختلفة وكأنني امرأة أخرى، نظرت للمدينة، كانت هادئة، تلك السماء الممطرة تبدو رائعة، وكأنها تقول بأن كل شيء على ما يرام.

سمعت صوت موسيقى... كم هي جميلة... إنها حزينة وتبكي... أجل كانت المعزوفة تبكي... تبكي من شيء ما، رأيت نافذة في منزل جوار منزلي، كانت هي مصدر الموسيقى... كان هنالك امرأة، بدا ذلك واضحًا من شعرها... كانت تنظر إلي... وظللتُ أنظر إليها... لوهلة ما كانت الحياة بيننا فقط، كان الظلام مرهقًا لها، شعرت وكأنها مشاعري التي تركتها.

دخلتُ منزلي ومنذ فترة لم أكن لوحدي تلك الليلة، حيث تناولنا وجبة العشاء على المائدة... في صمت، بعدها مكثتُ في فراشي وقرأت مذكرات زوجي السابق، كتب فيها...

" لم تكن الحياة سهلة يومًا ما علي... كان الصمت يجسد مشاعري... فقد كانت مرهقة لوجودها داخلي... لا أريد شيئًا غير أن أبعد هذا الحزن، فلا أحد يدرك كم هو مؤلم حينما يكون الحزن ذاتك... في فترة ما أدركت بأنني لم أعد كما كنت، أتذكر ماري، كانت على إدراك بأن مشاعري مؤلمة، منهمرة، ومخيفة... أصبحت بعيدًا عن كل شيء، في الواقع لم أكن أريد الابتعاد، لكن هكذا هي الحياة تحب البعد، كم هو صعب بأن تموت وأنت حي... لا تشعر بالفرح قط، ولكنك تمتلك شعورًا واحد... الحزن، أريد أن أشعر بالحياة، أعلم بأن الوحدة رائعة، لكن لم أكن يومًا سعيدًا لذلك هي شعوري الوحيد... أنتمي لها، أنا المعزوفة التي بكى عازفها... كم هو مؤلم حين يكون العزف مشاعر... هنالك هدوء، لكن داخلي معارك قاسية".

فتحتُ النافذة وظللتُ أنظر للسماء... رغم وجود كل تلك الغيوم، لماذا تلمع النجمة تلك؟... كنت مليئة بالفراغ وكلمات زوجي السابق تتحدث عن الآلام... لقد بكيت، لم يكن على ما يرام وأنا تركته، لا بد بأنه احتاج شخصًا ما، لم أكن أدرك معاناته... في بعض الأحيان أشعر بأنني أحبه، لكن لا أستطيع غير أن أبكي حزنًا على ما مضى، لقد كان رائعًا معي، كان صمته يبكيني.

وجدتُ رسالة وُضِعَت على شرفة منزلي... كانت من السيدة كيت، كتبت فيها...

"سيدة كاثرين، هل الحياة رائعة؟... أخشى ألا تتحقق أحلامي، ما زال صمتي عميقًا، أصبحت مرهقة... لقد قاومت كثيرًا إلى أن فقدت روحي... أدرك بأن كل شيء يمضي لكننا نفقد الكثير".

في صباح شتاءٍ قارس ارتديتُ فستانًا أسود، كنت ذاهبة إلى العمل، لم يمضِ الكثير على خروجي من المنزل، استقليتُ سيارتي، وجدتُ السيدة كيت أمامي... شعرتُ بأن رسالتها الأخيرة كانت محزنة، لكنها الآن تحاول أن تبدو سعيدة... كانت عيناها مرهقتين، تريدُ من الحياة بأن تنتهي لوهلة ما.

طلبتُ منها الصعود معي، لم تتفوه بكلمة ولم أبادرها بحرفٍ واحد، ظلّت عالقة في مكانٍ ما، مررنا جوار المسرح المهجور - كما كنا نسميه في طفولتنا، استوقفتني عنده وأصرت على دخوله، انصتُّ لها.

أخرجت من حقيبتها نقودًا واشترت تذكرتين، لم أكن أعلم بأنه يعمل، فلطالما ظننتُ بأنه قد آل به الزمن، جلسنا على المقاعد المتوسطة، ألقيتُ نظرة شاملة على الحضور... كانت وجوه الجميع فارغة!... لا مشاعر فيها، فقط تنظر...
فتحت الستائر وبدأت المسرحية.

كانت مختلفة، مؤلمة ومبكية، نظرتُ إلى السيدة كيت خلال بدء المسرحية، كانت تذرف عينيها وكأن الدموع قد أرهقت... فجأة ما ظهرت ابتسامة مؤلمة، بدت لي وكأنها قد رأت المسرحية من قبل، قالت لي: ((لستُ منهارة... فقط هذه أنا أبكي من مشهدٍ يشبهني))، أشارت بيدها إلى تلك الممثلة، كان المنظر رائعًا، أشاهد راقصة الباليه تحكي عن حزنها، شعرتُ بأنها تتحدث معي، كان ظلها يبكي... لقد كانت جيدة، ربما مشاعري شعرت بأنها جزء مني... أسدل الستار.

استيقظتُ وأنا في فراشي، ما الذي حدث؟!، لم أعلم متى أتيتُ إلى منزلي، كل ما أذكره نهاية المسرحية... أجل إنها غرفتي ذاتها، خرجتُ منها كي أرى مايك... مهلًا هذا ليس منزلي، إنها الجدران ذاتها، ورسائلي القديمة... لقد أتيتُ إلى هذا المنزل من قبل، لكن كان ذلك حلمًا!...

تجولتُ كطفلة ضائعة، لا يوجد أحد غيري، وجدتُ ورقة كُتِب فيها "الحياة أعمق مما نعتقد"، أشحتُ وجهي عنها للحظةٍ ما، وعندما نظرتُ إليها مرة أخرى... لم أجد تلك الكلمات!، لقد خفتُ كثيرًا، بكيت... حاولتُ أن أخرج من هنا، فتحتُ

الباب، لعلي أجد أحدًا ما، لكنني كنتُ وحيدة... أصبح جسدي باردًا وثقيلًا - وكأن مشاعري تنتفض، هنالك ألم في أعماقي، لماذا لا تزال روحي صامدة أمام هذه الحياة؟، تنهدت بحزن، وكأن الوحدة التي تعتريني أبدية.

ركضت كثيرًا، أريد أن أغادر من هنا، لا أعلم كيف غادرت هذا المكان في المرة الماضية، ابتعدت عن المنزل... لقد كان يمتلئ بذكرياتي، لكن لم أكن أنا نفس تلك المرأة التي كنتها.

وجدتُ نفسي في جادة "ساديبرغ"، كانت السماء ممطرة... فوقها فقط، أجل هم البائسون أنفسهم، لم يلحظ أحد ما وجودي... كم هذا غريب، إنهم وحيدون لا يملكون أي سعادة... إنها كما وصفتها تمامًا... مدينة الأحزان.

رأيتُ عبارة على إحدى الحانات "نافذة تطل على الليل"، شعرتُ وكأنني امرأة غادرت الحرب... لا تكترث، فقط تريد أن ترتاح.

رأيت طفلة صغيرة، لم يكن المارة يعيرونها اهتمامًا، تجاوزتهم إلى أن وقفت أمامي، لم أرَ ملامحها، كانت ممسكة بدمية، نظرتُ إليها بدهشة... إنها أنا، هكذا كنتُ أبدو في صغري!.

حاولتُ لمسها لكنها تلاشت مني...
بكيتُ حزنًا... صرختُ ألمًا، كانت روحي تُمطر... لا أحد يسمعني فظللتُ أبعد الجميع عن طريقي وفي كل مرةٍ ألمس أحدهم... يختفي!.

كل ذلك خيال فلا أحدٌ هنا حقيقي سواي... سقطتُ في حفرةٍ ما، بدا لي وكأن الحياة هنا تنتهي، توقف دمعي، لقد غطستُ في داخلي.

لا أعلم ما الذي حدث لكن بطريقةٍ ما عدتُ إلى المسرح المهجور!... وبجواري السيدة كيت، ألم تنتهِ المسرحية؟!... يا إلهي لم يتغير شيء، ما زلت مكتئبة... خرجت مسرعة، أريد أن أكون لوحدي، كان شعوري مؤلمًا، لا أدري ماذا حل بي؟!.

حاولت الوصول إلى الطبيب إلى أن وجدته جوار منزله، نظر إلي بدهشة وأسرع بالإمساك بي، كان جسدي يتهاوى، كنت على وشك السقوط... أحضر إلي الطبيب كوبًا من الماء، وأردف قائلًا: ((وجهكِ جميل يا سيدة كاثرين... لكن لديكِ معارك صعبة في داخلكِ)).

- لا أريد الانتصار عليها، ففي النهاية سأهزم نفسي.
- لماذا تبدين تائهة؟
- لقد تكرر الحلم... كنت وحدي محاطة بالذكريات... رأيتُ دميتي.
- ماذا بها؟
- لقد كانت صديقتي... اقتربتُ منها واختفت!... كنتُ طفلة أحملها بين يديّ.
- ماذا رأيتِ أيضًا؟
- البائسون... تجاوزتهم جميعًا... أو ربما لم يعد أحدٌ منهم يكترث لي... أيها الطبيب أريدُ بعض الأدوية، الكلمات جيدة ومذهلة... إنها تخفف لكنها لا تعطي أكثر من ذلك.

- بالعكس، الكلمة قوية... أنتِ مختلفة عن الآخرين فقط تذكري بأن الحياة تختلف أيضًا... الاختلاف مهم لنا يا سيدة كاثرين.
- إنها كذلك.

ظللتُ أتجول في المدينة، لا أدري إلى أين أمضي... فقط أريدُ وجهة، لا أريد أن أظل وحدي، توقفتُ لوهلة... كنت أريد الهدوء لنفسي، بعيدًا عن ذكرياتي... عدتُ إلى المنزل وكعادتي كنتُ وحيدة... لا يستيقظ ليلًا سوى من مشاعره تبكي... أخذت مذكرات زوجي السابق، جلستُ على مقعد في شرفة غرفتي وقرأت...

"كنتُ وحيدًا في تلك الليلة، لم يكن المطر رفيقًا لي؛ بل كان غريبًا يحاول أن يجعلني أنهض من حزني... كان يفهمني جيدًا، وكنتُ أعتقد بأن غيمة بكت فنزل ذلك الغريب... كانت عميقة، لقد كنتُ أنسى ذكرياتي لكن بعضها يتردد إلي بشكل مؤلم، لا أعلم ما الذي حدث!، لكن كنتُ فيها، تمنيتُ لو أنني لم أولد في هذه الحياة...

كنتُ متوجهًا إلى منزلي الذي لا أجده... نظرتُ إلى السماء، كانت الغيمة تحلق فوق رأسي، مليئة بالقطرات... في كل خطوة تتبعني، لماذا تمطر علي فقط؟!، أريد معجزة ما كي أشعر، ما عدت أدرك من أنا، مجرد شخص يمضي الليل وحده، يا للسخرية... غيمة تواسيني بينما لا أحد يدرك ما أمر به... أرى جزءًا من ذكرياتي تتجسد أمامي لكن لا أعلم من هم... هل هكذا أبدو!، يا إلهي لقد كبرت... لا أريد الموت وحيدًا".

تذكرتُ عبارة كتبت في إحدى جدران حانة "ويتلغون"...

"لا نعود أبدًا كما كنّا"

يا إلهي كم هي عميقة ومحزنة... تمنيتُ لو أن الحياة لا تتغير، سيكون الأمر رائعًا لو ما زلنا أطفالًا حيثُ لا ننتظر أحدًا ما... أريد أن أرى الحب في شخص ما... لقد تعبت من أن أعطي ذلك الشعور لمايك، ولا أعلم إن كان يحبني أم لا... لماذا لم أحب زوجي السابق؟!...

كان سعيدًا عندما أحدثه عن يومي الممل، ذات مرة كان يتألم من أمر ما... كان بإمكاني أن أقف جانبه وأساعده، لكنه اعتاد أن ينجو وحده... لم يكن يعرف ماذا يعني اليأس... بعد انفصالنا اختفى... مرت لحظات كنت فيها حزينة لأنني فقدته، لم يكن مجرد زوج بل أكثر من ذلك، فقد كان صديقي قبل أن نرتبط... كان جزءًا مني، أحبني وخنته... روحي أرهقت لم أعد أريد المقاومة... كنت أرى مايك كثيرًا... وهذا القلب قاسي... لقد أحببت مايك مجددًا وتركت زوجي السابق وحيدًا... أريد أن أعانقه لمرة واحدة... أريد أن أبكي بين يديه... أريد أن أخبره بأن الإنسان لا يحب مثله.

تعودُ بي الذكرى للماضي... في إحدى أيام الشتاء القارس، كنت على وشك الاجتماع مع بعض المحامين... في تلك اللحظة كنت منهمكة في مكتبي أدرس قضية ما... دخلت علي ابنتي جين مبللة جراء المطر...

قلت لها: ((ماذا تريدين الآن؟))... لم ترد علي، نظرتُ إليها...

قالت لي: ((لقد مات والدي))، كانت تبكي... حدث بيننا صمتٌ وكأن العالم قد توقف عند تلك اللحظة... ابتعدت مني، سقط القلم من يدي... حاولتُ أن أبدو قوية... ألغيت الاجتماع وغادرت بسيارتي... توقفت عند ناصية الشارع... انهمرت دموعي دون صوت مني إلى أن صرخت بقوة... لم أتوقع ذلك، لقد أحبني وأبعد الحزن مني وحاول دائمًا إسعادي... لقد تركني كي أجد الفرح في حياتي... لقد كان ملهمي... فلماذا غادر؟!، لم يكن سهلًا تجاوز الأمر... لم يكن الحزن الذي انتابني بأنه سيختفي.

مضى الكثير... وجدتُ رسالة أخرى من السيدة كيت، كتبت فيها...

"سيدة كاثرين... أنا مرهقة، أريد أن نلتقي أنا وزوجي وابنتي كعائلة لمرة واحدة فقط، لقد حاولت الصمود في هذه الحياة طويلًا أمام الحزن واليأس... ولكن روحي تبكي... وكم هذا شاق على قلبي، أجول الشوارع ليلًا لعلنا نلتقي، أتعلمين كنا نلتقي في أغنية حزينة".

أتذكر بعد فترة وجيزة أخبرتني سوزان بأن والدتي نقلت إلى إحدى المستشفيات، خرجتُ من المنزل مسرعة وهرعتُ إليها... وصلتِ أخيرًا إلى المشفى بعدما استقليتُ القطار... كنت متجهة إلى المجهول إلى أن استوقفتني إحدى الممرضات، حيثُ وصفت إلي أن يمكن أن أجد والدتي...

"اعذريني يا والدتي لم أبعد حزنك"...

هكذا كانت تحدث نفسها وعيناها مليئة بالدموع، إنها شقيقتي سوزان... حضنتني بقوة، في تلك اللحظة دار بيننا حوار صامت... لقد اشتقتُ لها ولقد شعرت هي بالملل من انتظاري، كان برفقتها عائلتها، زوجها وبناتها، لم نكن نعرف بعضنا جيدًا... ظللن ينظرن إلي بدهشة وكأن صمتهن يقول "أحقًا أنتِ خالتنا؟!".

لم تكن والدتي بخير، كما أخبرتني سوزان... لقد أصيبت بنوبةٍ قلبية.

بعد فترة ما أتى والدي، لم يكن كما كان... يبدو مرهقًا، الحياة قاسية عليه، لا يزال جسده صامدًا، كانت التجاعيد محزنة.

"لقد كبرت يا والدي"... هكذا أخبرته، ابتسم لي، سعدتُ كثيرًا وكأنه أبعد الحزن مني... تساقط الدمع من عينيّ وكأن الحياة ستزيل الألم من روحي، كان صعبًا علينا أن نلتقي بعد فترة... لقد ابتعدتا عن بعض بسبب الحياة... أجل كل منا يحب الآخر، لكن لا بد أن يعود الجميع إلى ظله.

نظرت إلى والدتي من وراء تلك النافذة... كانت الأجهزة كثيرة، تملكني شعور كثيف ومؤلم... سمح لنا الطبيب بأن نراها، اقتربت منها... يا إلهي سترحل... شرعت في الدعاء، أريد معجزة ما... جلستُ جوارها، نزلت دمعتان من عينيها مارّة على خديها المتوردين واصلةً إلى أعماقي... فجأة ما استيقظت، قلتُ لها بنبرة حزينة يسودها البكاء "أنتِ بخير يا والدتي".

علمتني الحياة بأنها ستجعلني أمر بشعور السنين خلال ليلةٍ واحدة.

في صباح اليوم التالي وليس كعادتي استيقظتُ سعيدة، كان المطر يتساقط بغزارة... هكذا هي مدينتي، تنهمر مشاعرها دومًا... كان صباحًا رائعًا، ارتديت معطفي المقاوم للماء وتمشيتُ وصولًا إلى حانة "ويتلغون"... رأيت أحدهم يجلس على طاولتي المعتادة...

إنها السيدة كيت، بادرتني بابتسامة هادئة - وكأنه يسكن داخلها أمل وقالت لي: ((صباح الخير سيدة كاثرين، تبدين جميلة)).

- وأنتِ أيضًا.
- هل تقليتِ رسالتي؟.
- أجل.

نظرت إلى الفراغ ثم أردفت: ((إنها أغنية جميلة))، وضعت كوب القهوة على الطاولة ثم أكملت: ((أريد أن أراه ولكن أنا خائفة)).

- من ماذا؟.
- من ألا يكون مهتمًّا.
- لربما هو ينتظركِ... كان يشعر بالحزن على أيام لم يركِ فيها... يدرك جيدًا بأن امرأة مثلكِ تصمد أمام الحزن.
- الوحدة مؤلمة... ليست مجرد شعور.
- لماذا تحتاجينه كي يكون معكِ؟... لطالما ظننت بأن الإنسان هو من يعلم جيدًا أين تكون سعادته.

- ذلك صحيح... لكنه كان جزءًا مني، لقد كانت مشاعرنا تلمع.
- أنتِ تتحدثين كزوجي السابق، كان يشعر معي بالراحة مثلكِ تمامًا.
- هل نستطيع مقابلته الآن؟.
- أجل.

كنتُ أقود السيارة بينما هي جالسة جانبي تنظر إلى قطرات المطر المندفقة على سطح زجاج النافذة... توقفنا لوهلة عند المسرح المهجور... كانت ابنتها بانتظارنا، ركبت معنا ومضينا.

فور وصولنا إلى شارع البائسون، لم نره... ظللنا نبحث عنه لفترة طويلة... أخبرنا أحدهم بأنه سيأتي في المساء، اقترح علينا بأن نمضي بقية الوقت في الحانة المجاورة لنا... كانت باردة ومخيفة وكأنها من عالم آخر... حل المساء وأتى إلينا ذلك الرجل قال بأنه يقف بالخارج.

كان هو... نظر إلينا... توجهت إليه السيدة كيت وقالت: ((لقد تألمت كثيرًا... أعلم بأنك مررت بالكثير وابتعدت عنا لأنه الأفضل... أرجوك أخبر مشاعري بأنك لا تريد العودة مجددًا)).

- انظري إلي جيدًا أنا حزين... لا أريد بأن أزيد حزنك... فلم يكن الحزن يومًا شعورًا يتملكني، بل هو موجود في روحي.

أمسك بها بيديه، أرادها أن تشعر به...

قالت له: ((أرادت ابنتنا أن تراك، لكن أدركت بأنك حقًا لا تريدنا... في كل مرة أراك أصمت))، كانت تبكي بشدة، ثم أردفت كلماتٍ حزينة: ((أتمنى لو يستمر حبي لك)).

- أتمنى لو لم تحبيني يومًا.

افترقا وكان التمني مجرد حلم.

كان بكاؤها مؤلمًا...

ذهبتُ إلى الطبيب في منتصف الليل، كان يقف خارج مكتبه يدخن غليونه، نظر إلي بفرح وقال لي: ((كنت أرجو أن تأتي إلي اليوم يا سيدة كاثرين)).

- لقد التقيا اليوم.
- السيدة كيت وزوجها؟!.
- أجل.
- وماذا حدث؟.
- كانت تحاول إخفاء حزنها بالابتسام... لديهما نفس المشاعر، لكنه خائف... كانت نظراتهم مدهشة، ظل يحدق فيها طويلًا... أتعلم لماذا؟... لأنه هكذا يتأمل جمالها... كانت دموعها سعيدة.
- وماذا عنكِ؟، تبدين فرحة اليوم.
- أجل أنا كذلك، لقد نقلت والدتي إلى المشفى... لكنها الآن على ما يرام وذلك أمر كافي، أنت لا تعلم بأن الحياة تزهر معها.
- لقد تغيرت يا سيدة كاثرين منذ المرة الأولى.
- لقد عانقت لحظاتي السعيدة.

- وماذا عن الحزينة؟.
- دعها تنام قليلًا.

استقليتُ القطار، لم يكن منزلي بعيدًا عن مكتب الطبيب، كانت المقصورة لا تعج بالأشخاص... أخرجت من حقيبتي مذكرات زوجي السابق وقرأت...

"أشعر وكأنني رسالة لم تصل... فارغة تمامًا... لا تحتوي على كلمات، قادمة من ليالي الشتاء القارس... كم هي باردة ومرهقة من كتابة الكلمات عليها... لقد انطفأت الكلمات إلى الأبد، في يوم ما كنت مختلفًا... أدرك ذلك جيدًا ففي كل ذكرى تمر علي أرى ملامح لا تشبه حزني الآن... كنت سعيدًا، أما هذه الفترة فهي كئيبة لذلك أكتب... متى ينتهي هذا الحزن؟!، لقد أثقل قلبي... لم تعد الحياة تبتسم لي... ربما كنتِ أنتِ الحياة".

تأملتُ كلماته... لقد كانت حزينة وكأنها توقفت... لم تصل للشخص الآخر، نزلتُ في المحطة... مشيتُ قليلًا حتى الوصول إلى منزلي... كنتُ أحدث نفسي، هل السيدة كيت بخير؟، أريد رؤيتها.

كانت الغيوم تغطي السماء... هطل المطر كعادته... مر جواري رجل يرتدي ملابس سوداء ممسكًا بمظلة وكأنه علم بقدوم المطر... كانت ملامحه مرهقة...

وهنالك عائلة تسرع لدخول المنزل، بينما الأطفال فرحون بقطرات المطر... المتاجر تضاء ليلًا...

وهنالك امرأة توقف سيارة أجرة، مرتدية المعطف الأسود وشعرها المنسدل... مبللة بالمطر، وصلتُ إلى المنزل... حقًا لكل منا قصة.

كان دريك ينتظرُ قدومي، بدا خائفًا من صوت الرعد... أخذته إلى حضني... لم أكن أعلم بأن قلبه ينبض هكذا... أخبرته بأنه لا بأس فهكذا المطر يخبرنا بروعته... لم يكن بالمنزل أحد غيرنا.

وجدت رسالة من السيدة كيت، كتبت فيها...

"سيدة كاثرين، لا أعلم ما الذي يحدث داخلي... هنالك شعور محزن... لا أحد يعلم معنى أن تكون نفسك حزينة... أتدركين بأن الكلمات تقول الكثير".

تعود بي الذكرى إلى طفولتي... كنتُ أتجول في فناء المنزل... أتذكر حينها قد انتهينا من وجبة العشاء، كان منظر السماء ساحرًا... بدأت النجوم سعيدة والغيوم تبتعد لتمطر في مدينة ما، نظرتُ إلى والدي... لم يكن يبعد عينيه عن والدتي، قالت له: ((لماذا تحدق إلي هكذا؟!)).

- أنتِ كقصة ليلية.
- إذًا لا تتوقع الكثير مني.
- لماذا يا عزيزتي؟.
- لأن نهايتي ستبدو حزينة.
- حزينة!.
- أجل فالعشاق وحدهم من يبكون ليلًا.

لم أفهم ذلك الحوار قط... لكن كان والدي عاشقًا.

استيقظتُ في الصباح الباكر... كنتُ أشعر بالسعادة... كان فصل الشتاء حاولتُ النهوض لكنني لم أستطع الوقوف، يا إلهي أنا مرهقة...

عدتُ مجددًا إلى ذات الغرفة، وحيدة بين الذكريات... لا أعلم أهذا حلم أم حقيقة؟!... تجولتُ في أنحاء المنزل، في محاولة مني لإدراك أين أنا... وجدتُ غرفة مليئة بالآلام... كان يوجد رجل يجلس في كرسي ما... مرتديًا معطفًا أسود، لم أرَ ملامحه كان الظلام يخفيه، في كل مرة أخاطبه لا يرد وكأن صوتي بعيد... لماذا لا يتحرك؟، هل هو دمية ما؟!، تساءلت كثيرًا... كانت جواره طاولة فوقها ورقة ما، قرأتها...

"لم أحب أحدًا كما أحببتها... أخبرتني يومًا بأنها تحبني، لقد كانت عميقة... في كل مرة تبكي فيها كنت أتمسك بدمعها فهي جزءٌ مني... عندما يتساقط المطر أشعر بالسعادة... فقد أدركت حينها بأنها بخير".

نظرت بتمعن في الكلمات مجددًا ولوهلة ما رأيتُ الأحرف تهوى على شكل قطرة... دهشت منها... اختفى الظلام المعتمر... إنه زوجي السابق!... يبكي بصمت مؤلم، هرعت مسرعة، إنني أتلاشى وكأنني نجمة انطفأت... لا أعلم ما الذي حدث؟!... وجدت نفسي قد عدت إلى غرفتي.

ذهبتُ إلى الطبيب، هنالك خطب ما... استقليتُ سيارة أجرة، في طريقنا ظللتُ أنظر إلى الجميع... لماذا أشعر بأنني لا أنتمي إلى هنا؟!... وصلتُ أخيرًا... لقد انتظرتُ كثيرًا، هنالك آخرون... أخبرتني الآنسة التي تعمل معه بالدخول.

قلت له: ((أهلًا أيها الطبيب)).

- أهلًا بكِ سيدة كاثرين... لماذا تبدين حزينة؟!.
- لقد تكرر الحلم... ورأيتُ زوجي السابق.
- هذا أمر مدهش... أكملي.
- أشعر بالانهيار.
- لا بأس سيدة كاثرين... كيف كان يبدو؟.
- يبكي، وذلك محزن لأنه شخص صامد... كانت دموعه عاشقة.
- كيف ذلك؟.
- كانت مميزة وفريدة.
- هل خاطبكِ؟.
- لا... فقط كعادته صامت.

- لربما ذلك ليس بحلم قد يكون... روحًا!.
- كيف يمكن ذلك أيها الطبيب؟!.
- انظري إلى أعماقكِ.

لا أشعر بشيء بعد لقائي بالطبيب، كيف يمكن أن تكون روحًا، بدت الحياة غريبة اليوم... أنا لم أختر هذه الحياة فقد كبرت وهي جزء مني... لم يختلف شيء مشاعري ليست على ما يرام، كم هو مرهق أن أستيقظ كل صباح على أملٍ بحياة مختلفة لكن كل شيء كما هو.

۞ ۞

مر الكثير... لم أذهب إلى الطبيب منذ فترة... في الواقع لم تتحسن حياتي، الجميع حولي، أصبحتُ أرى والديّ وشقيقتي كثيرًا... لكن لم أكن معهم إن روحي في مكان ما، كما أن السيدة كيت قد اختفت من حياتي.

حدث أمر أدهشني، في مساءٍ ما كنتُ في "ويتلغون" أمضي الليل هنالك... كان الشارع مزدحمًا... ظللتُ أتخطى الجميع إلى أن وقعت عيناي على أحدهم... معطف أحمر، شعرها الأسود مسدول وكأنه يبهر جمالها... حاملة حقيبة بيضاء، نظرت إلي فترة، اقتربنا، قالت لي: ((كاثرين!)).

- أجل عزيزتي ماري، إنها أنا.
- لقد مضى الكثير من الوقت.

عانقتها بألم السنين، أردفت قائلة: ((ماري... أنا سعيدة لرؤيتكِ)).

- وأنا أيضًا... كيف هي حياتكِ؟.
- حياتي... أشبه بالموت الذي لا ينتهي... لقد فقدت الكثير من نفسي... أصبحت مجرد روح خاوية.
- مؤلم يا عزيزتي هذا الوصف.
- هكذا هي حياتي... عائلتي وأصدقائي وحتى الجيران دومًا برفقتي، لكن لماذا أشعر بأن القريب غريب؟!.
- لم تكن حياتكِ هكذا.
- كل شيء يمضي مع الأيام.

ذهبنا إلى إحدى المطاعم... كان رائع تناول العشاء مع صدف اللقاء... كانت تحمل في حديثها معي الكثير من الذكريات.

من هي ماري؟... لم تكن مجرد شخص أعرفه بل صديقة زوجي السابق... كما أننا ارتدنا نفس المدرسة، هي مصدر قوته.

عندما جلسنا في الطاولة بادرتني قائلة: ((هل جين بخير؟)).

- أجل ماري... إنها بخير.

- لقد آلت بنا الحياة للتغيير... تخبرني ابنتي بأن أبتسم، فوجهي الحزين يجعلني أفوقها جمالًا... لقد أصبحت أبعد الحزن في وجودها... لكن في وحدتي أشعر وكأن الحزن يتخلل يومي بشكل دائم.
- أنا أيضًا أقضي الليل وحدي.

لقد ظللتُ كثيرًا أمضي الأيام وحدي، لقائي بها أعاد نوعًا ما من البهجة إلى حياتي... لقد أتت بعد أن تملكني الحزن... لقد كنت أعيش حياتي وكأنها يوم واحد... لم تكن فكرة الموت بعيدة مني... أنا والحياة... هكذا هي أيامي... تمر من خلالي... لا تزال روحي متعبة، لكن الصمت يكفي... بكاؤها مؤلم.

علمتني الحياة بأنها مختلفة، منهكة، ومحزنة... أريد أن أخبرها بأنني لا أريد بأن أطفئ وحدي، لماذا على المطر أن يكون برفقتي ليلًا؟!، لست سوى شخص أراد بأن يعانق أحلامه.

في إحدى الأمسيات الهادئة ذهبت إلى زيارة ماري في منزلها... كنت أشعر بأن روحي تختنق، أعتقد بأنه لم يكن يجدر بي التوقف عن القدوم إلى الطبيب...

كان منزلها مختلفًا عن آخر زيارة لي، لكن لا يزال الطابع الكلاسيكي موجودًا، جلسنا في المائدة وقالت لي: ((عيناكِ حزينة!)).

- أصبحتُ هكذا يا ماري.
- هل بهذا الحزن تلتقين بعائلتكِ؟!.
- أجل... فالحزن يمضي أيضًا.

كان زوجها تيم صامتًا للغاية... يأكل ببطء طبق المكرونة الشهي، نظرت إليه ماري وأردفت: (وماذا عنك يا عزيزي).

- ماذا؟.
- في حزن كاثرين.
- إنه لا يمضي... فهو كالقمر تمامًا، لا نراه جيدًا، هنالك جزء مختفي.
- وصف رائع يا عزيزي.
- أشكركِ يا عزيزتي، فقط الحزن لغة لا تحتاج إلى ترجمة.

عم الصمت لدقائق قبل أن أقول له: ((ماذا لو كان هذا الحزن يجعلني أتألم يا تيم؟)).

- نحن لا نتخطى الحزن أبدًا يا كاثرين، فلا تقاوميه إطلاقًا، فقط اعتني به جيدًا.

كان الحوار معهما ملهمًا للغاية فقد ساعدني كثيرًا، لم يكن تيم حزينًا قط... هو فقط يعيش حياة نسجت من خلال أحلامه... في الماضي لم أعرفه جيدًا، كان مجرد شخص غريب يبدو في أعماقه بأنه حزين، لكن لم يكن كذلك.

خرجت من منزلهما بعد ليلة أحيت داخلي الكثير، أنا سعيدة لرؤيتهما.

استقليتُ سيارة أجرة... كنت أنظر من خلف النافذة على المارة، لماذا يبدو الغرباء حزناء؟، علمتني الحياة بأن الحزن يجعلها لا تنتهي... لاحظت في الطرف الآخر من الشارع السيدة كيت... أوقفت السائق وأسرعت إليها، لم تكن تسمع صوتي، حاولت لمسها لكنها اختفت من أمامي وكأنها خيال.... ابتعدت مسرعة من مكاني، توجهت إلى محطة القطار، أريد العودة إلى منزلي، يا إلهي مجددًا جسدي يبرد... رؤيتي غير واضحة... لا أستطيع الكلام وسقطت.

غرفة باهتة... جدرانها مؤلمة بطابع قديم، أجل هي الغرفة نفسها... نهضتُ من السرير بقصد الخروج من هنا، قدم إلي شخص لم ألحظ ملامحه، كانت عيناي مرهقة.

- ((أفقتِ سيدة كاثرين؟)).

نظرتُ إليها متحسسة تعبي، قلت لها: ((أنتِ؟)).

كانت السيدة كيت!، أردفت قائلة لي: ((أجل... لقد وجدتكِ في الشارع وكنت تبدين مرهقة)).

- هل هذه غرفتكِ؟.
- إنها كذلك... في الواقع إنه منزلي.
- لقد رأيته كثيرًا في أحلامي.
- أمر غريب.
- أجل إنه كذلك.
- سأتركك لترتاحي قليلًا.

لم تكن صدفة... لا أعلم ما الذي يحدث!، تجولت في الغرفة، تحسست الأثاث ونظرت للخارج من خلال النافذة... لم أكن وحدي، ظل حديث الطبيب يراودني في أعماقي... روح... حاولت أن أتدارك وضعي، قابلتها عند مائدة العشاء، قلت لها: ((نحن في الصباح الباكر؟!)).

- لا سيدة كاثرين إنه المساء... لقد نمتِ كثيرًا.

ألقيتُ نظرة أخرى نحو السماء فوجدت بأن اليوم قد أمسى... يا إلهي ماذا يجري، قلت لها: ((أنتِ السيدة كيت، أليس كذلك؟)).

- أجل... هل أنتِ بخير؟.
- لا... لست كذلك... أرجوكِ أريد أن أرحل من هنا.
- حسنًا سيدة كاثرين، سأوصلها.
- لا، أريد أن أذهب وحدي.
- كما تريدين.

أسرعت للخروج من منزلها، كانت الشوارع كما هي... هذا ليس بحلم أبدًا، كانت مشاعري عميقة.

ظللت في المنزل وحدي لأيام لا تنتهي، اعتقدت بأن كل ما أراه أمامي مجرد خيال... أتنقل من غرفة إلى أخرى، لا حديث مع عائلتي... كانت حياتي تزداد سوءًا، ولم يلقِ لي أحدهم اهتمامًا... فتحت مذكرات زوجي السابق في أمل مني بأن تبعد كلماته الحزن عني وقرأت...

"ذات يومٍ ذهبت إلى مسرح المدينة... لم يكن الحضور بهذه الكثرة فقط بعض أشخاص مشاعرهم تبكي، كانت راقصة الباليه مدهشة إلى أن ظننتها تحلق... كانت تبكي في أعماقها أيضًا وكأن روحها تريد المغادرة... أجل إنها كذلك... نظرت إليها بحزن لا أعلم ما الذي أصابني حينها لكنها شعرت بنظرتي لها... تغير مشهد المسرحية... بينما كانت تصارع أحلامها، أصبحت تريني حزنها... لم تكن مجرد راقصة بل أكثر من ذلك كثيرًا، في عينيها قد سكب الحزن... كانت عميقة وكأنها تعكس روحها... كان في صمتها حديث لا تسمعه سوى الأرواح... صفق لها الحضور...

وبقيت حزينة وكأنها أرادت مني بأن أخفف عنها الألم... لماذا النهايات السعيدة في الأفلام فقط؟!."

في كل كلمة منه كان يصف ذاته، شعرت بالحزن من أجله فقد مات وبداخله الكثير، كان يمتلك عالم خاص به يسكنه الألم وهوائه الكلمات... يبدو مظلماً...

لكنه كان شخصًا كالآخرين لديه مشاعر أخرى، في كل مرة تمطر السماء فيها أتذكره... أعتقد بأنه يخاطبني بطريقة ما... ودومًا أبكي فلقد تركت رجلًا أحب امرأة واحدة فقط هي أنا... بينما أنا جعلته كالغريب... لن يعود مجددًا...

ظللت أبكي الليالي حزنًا عليه، كان بالإمكان أن نكون نحن لكن الأنثى التي بداخلي تعشق الكبرياء.

في اليوم التالي ذهبت إلى الطبيب... لقد مضى الكثير منذ أن كنت معه... كانت السماء تخبرني بأن زوجي السابق على وشك محادثتي... هكذا علمني المطر، استقبلني الطبيب بفرح وكأنه كان ينتظر رؤيتي، قلت له: ((أنا سعيدة برؤيتك يا أيها الطبيب)).

- لست كذلك سيدة كاثرين... فقط هنالك خطب في حياتكِ.
- أنت تعرفني جيدًا... حسنًا لقد ابتعدت عن الجميع في الفترة الماضية... حتى عائلتي وهذا أمر شاق علي... ظللت مندهشة، لماذا لا تتوقف الحياة عندما يتألم الإنسان؟.
- سيدة كاثرين، إنها تمضي... فلست سوى كائن في عالم كبير.
- أتذكر حديثك عن الروح؟.
- أجل.
- حسنًا... في الفترة الماضية تكرر الحلم نفسه... في المنزل ذاته لكن هذه المرة حادثت شخصًا ما.
- من ذلك الشخص؟.
- إنها السيدة كيت... لكن الأمر الغريب بأن ذلك لم يكن حلمًا بل هو أمر حقيقي.
- وكيف أدركتِ ذلك؟.
- الليلة مضت ولم أشعر بأنني قد حلمت قط.

- أمر مثير، وما تفسيركِ لذلك الحدث؟.
- في الواقع، لقد قرأت مذكرات زوجي السابق... كان يصف مسرحية ما قد شاهدها لراقصة باليه وقد كانت تشبه السيدة كيت... في كل شيء حتى حزنها.
- ربما السيدة كيت تعرف زوجكِ السابق جيدًا.
- أشعر بذلك أيضًا... لكنني أَحس بالألم عندما أرها وكأنها تروي عن ألمي أنا وليس هي.
- سيدة كاثرين... التقي بها واعرفي الكثير عنها.
- بالطبع يا أيها الطبيب.

لطالما كانت زيارتي للطبيب تدعمني من الأعماق... إنه شخص رائع.

❁ ❁

كانت الكتب منفذًا لعالم آخر، أتذكر بأنني قد قرأت يومًا شيئًا لأمس روحي...

"أمضي إلى داخلك الحزين بعمق... أكتشف ذاتك فأنت لا تعلم كم طفل يموت في أعماقنا... لقد أدركت بأن ولادة المشاعر أمر رائع... لكن في النهاية دائمًا نشعر بالألم".

كانت كلمات رائعة فقد احتوت على الكثير.

في إحدى الأيام وصلت إلى منزلي بعد فترة كنت قد قضيتها وحيدة... فتحت باب المنزل فوجدت شقيقتي سوزان تجلس على الأريكة، ارتسمت على وجهها ابتسامة لطيفة وقالت لي: ((أعتذر لكِ، أتيت دون أن أخبركِ)).

لا بأس سوزان... يبدو بأنكِ تناولتِ كوبًا من القهوة.

- أجل... أعده مايك من أجلي وصعد كي ينام.
- كيف هم والداي؟.
- إنهما بخير...

كانت تريد قول أمر ما لكن الدموع قد أوقفت حديثها... كانت دموعًا لا تنزل... يا إلهي إنها مؤلمة، اقتربت منها وقلت لها: ((عزيزتي سوزان ما خطبكِ؟)).

- أنا على ما يرام... هل لديكِ موسيقة ما؟.
- أجل... إنها سيمفونية.

أدرت الإسطوانة الكلاسيكية واستمتعت لسوزان: ((سننفصل أنا وبيتر)).

- لماذا؟!، علاقتكما رائعة.
- كانت كذلك... لكن ذلك الأفضل لكلينا.
- لا تفعلي أمرًا كالطلاق... انظري لابنتي جين إنها تائهة وهي لم تقضِ إلا القليل مع والدها، فماذا عن أبنائكِ؟.
- كاثرين... في لحظة ما ماتت فيها هذه العلاقة.

- امنحي نفسكِ بعض الوقت.
- ما الذي جعلكِ مرهقة هكذا؟!.
- أنا بخير يا سوزان.
- لكن عيناكِ تعكسان دموعًا لم تجف قط، فما سبب نزولها؟.

كانت سوزان تفهمني دومًا... لم أندهش منها، فقط قلت لها: ((أنا أعيش حياة ليست ملكي)).

- ربما هزائمكِ الداخلية مرهقة.
- لا توجد سعادة في حياتي، كل شعور لدي يخنقني وظل الحزن وحده صامدًا.
- كم أنتِ عميقة... أتعلمين لا توجد امرأة مثلكِ.
- أعلم فأنا مميزة.

خرجنا من المنزل... كانت أرواحنا مضطربة، وكأنها تريد المغادرة لكن الحياة تصمد أمامها... تمشينا، لم نكن نتحدث، فقط نتأمل... الشوارع شبه خالية... توقفنا عند البحر.

((هل الحياة تعشق الذكريات؟))، نظرتُ إلى سوزان...
كانت كلماتها لا تحتوي على شيء غير الحزن، حاولت أن أخفف من آلامها: ((حسناً... إنها لا تكترث لنا، فقط إنها تمضي)).

- إلى أين؟... عليها أن تدرك بأن لنا أحلام أيضًا، فلما هي تقسو علينا هكذا!.
- نحن يا سوزان من نتألم... مشاعرنا هي من تبكينا ويومًا ما ستنتهي في هذه الحياة.
- كم هو منعش هذا الهواء العليل.
- ربما أحدهم قد وقع في الحب في هذه اللحظة.
- في بداية الأمر هو شعور لا يوصف... أتذكر زوجي حينما أوشكنا علو الزواج قال لي "دعينا نعشق الحياة معًا"... وقد عشقتها كثيرًا، لكنها لم تحبني قط.

كانت متعبة فكل تلك المشاعر شاقة عليها... اختلفت ملامحها، أصبحت حزينة... يا إلهي إن السنين تغيرت وكذلك نحن... فقط نريد المغادرة فهذه الحياة لا تشبهنا، لا نشعر بالشغف تجاهها... نظرت سوزان حولها ثم قالت: (هنا كان يعمل أليس كذلك؟).

- أجل... في هذه المشفى.
- كاثرين... هل أحببته يومًا؟.
- أحببت حبه لي لكن كان قلبي يريد مايك.
- أخبريني كيف كان حبه؟.
- حسناً... كان حبه بداخله حيث لا ينتهي أبدًا... كان ذلك واضحًا في آخر لقاء بيننا... التقت أعيننا بذكريات الماضي... يا إلهي كم كان مذهلًا... لقد أصبحت امرأة مختلفة عن تلك التي كانت معه منذ سنين لكنه لم يتغير، أشعر وكأنه كان شخصًا ضعيفًا، لم يكن كذلك قط... في كل علاقة كان هو الطرف المهزوم.
- ذلك ليس جيدًا.

أنتِ لا تدركين بأنه شخص عظيم... فهو لا يريد أن تنتهي الأحلام في تلك العلاقة، ففيها حياة أيضًا.

- لقد أدركت من حديثكِ بأن رجل رائع... فكيف لم...؟.
- أفكر فيه... أليس كذلك.

- أجل.
- سوزان... لقد رأيته في إحدى أحلامي كان يبكي... لقد عاش حياة مؤلمة... تخلت عنه عائلته وكذلك أصدقاؤه وحتى... أنا.
- عندما رأيته رفقة ماري في المطعم كان يبدو سعيدًا.
- لكنه من الداخل يصرخ... كان مثلنا يريد أن تغادر روحه هذه الحياة... لم يكن مجرد رجل عادي... كان يهتم بالجميع ولا أحد يعلم ما يمر به... لطالما كانت حياته قاسية.

في إحدى الأمسيات الباردة... كنا نجلس في فناء المنزل، أتذكر جيدًا كان مايك سعيدًا... أردت أن أخبرهم بأنني على وشك المغادرة... أريد أن أبتعد عنهم، هكذا أردد في داخلي، نظرت إلى جين هي أيضًا تشعر بالفرح تلعب رفقة دريك، كل شخص من عائلتي يمر بفترة رائعة... لكن كعادته كبريائي متألم.

((أريد مغادرتكم))... هكذا أخبرتهم وصمت، نظروا إلي وعلامات الاستغراب رسمت على وجوههم... غريب أمرنا نحن البشر... دومًا نريد التفوق... لماذا لا يوجد شخص يعترف بهزيمته؟!... أجل اليوم سأهزم كبريائي قلت لهم: ((أعني أريد الذهاب إلى النوم))... كبريائي العزيز... أرجوك ابتعد لوهلة أريد السعادة للجميع.

مكثت في فراشي وأنا أفكر في تلك الكلمات التي لم أقلها، أجل كنت أريد الابتعاد عن الجميع... هطل المطر، نظرت من بعيد للنافذة يبدو بأنه يريد مواساتي... كان هنالك أحد ما، بدا وكأنه

ينظر إلي... اقتربت... إنها السيدة كيت، ارتديت معطفي وخرجت للشارع.

فرحت... لا أعلم لماذا، لكن هكذا شعرت... علاقتي بها لم تكن منذ فترة لكنها شخصية أحببتها كثيرًا... فالوقت لا يحدد قوة العلاقة.

قالت لي: ((سيدة كاثرين... أعتذر لإزعاجكِ في هذه الليلة الممطرة... أردت أن أرى إن كنتِ على ما يرام... ففي ذلك اليوم كنت تائهة)).

- أشكركِ، إنني بخير... ذلك اليوم لم يكن جيدًا لي... لقد كنت أرى منزلكِ في أحلامي كثيرًا فقد خفت.
- هل يمكننا الذهاب إلى مكان ما؟.
- أجل.

ذهبنا إلى "ويتلغون"، جلسنا على طاولتي المعتادة، أمام بعضنا... ألقيت نظرة للمكان كانت الوجوه تختلف ليس هنالك شخص أعرفه سوى النادلة التي طلبنا منها كوبين من القهوة.

بادرت السيدة كيت بالحديث قائلة لي: ((سيدة كاثرين... لا تبدين كتلك المرأة التي رأيتها في الأولى)).

- أصبحت أعاني الاكتئاب... لا أحد يخبرني بذلك لكنه يبدو واضحًا علي.
- لم تكن ملامح وجهكِ تعكس ما ترينه في حياتكِ.
- سيدة كيت.. لقد تعبت من التجاوز أريد أن أرتاح فقط.
- يا إلهي... حقًا أنتِ تشبهيني كثيرًا... فأنا مثلكِ لكنني امتلكت أمرًا آخر.
- ما هو؟.
- قررت الانتحار وفعلت.
- كيف لكِ أن تموتِ وأنتِ أمامي الآن؟!.
- انتحاري لم يكن يشبه شيئًا فلقد ماتت روحي بحزني.
- لماذا نربط الحزن دومًا بعلاقاتنا مع الآخرين؟.
- ربما لأنهم جزء منا... أتعلمين أمرًا... أنتِ لا تحتاجين لأحدهم كي تكوني قوية... لا يوجد أحد يجعلكِ أفضل سوى أنتِ... حزني يختلف عن الكثير من الأشخاص... لا أكترث لزوجي أو حتى ابنتي فلطالما كانا مصدر

سعادتي أما حزني فهو شعور تحبه روحي... فكرة الانتحار مؤلمة.

- هذه الحياة رهيبة للغاية... ففي حديثك يوجد ألم كزوجي السابق.
- أنا لا أشبهه، ربما...
- ماذا ؟.
- أنتِ تفتقدينه سيدة كاثرين.
- أعيش بداخل الليل وكانت مشاعره ليلية.
- اليوم هو لقاؤنا الأخير... سيدة كاثرين، أشكركِ كثيرًا.
- إلى أين تريدين الذهاب؟.
- إلى مكان لا أرى أحدًا فيه حتى نفسي لا أريد معرفتها مجددًا.
- أهكذا ننتهي؟!.
- كلنا رسائل في حياة الآخرين.. لا شيء يدوم إلى الأبد.. غير الذكرى.
- لا تبتعدي الآن فأنا أريدكِ ألا تدركين؟.
- لست سوى شخص.

ذهبت مبتعدة... تركت دموعها على الطاولة كلحظة وداع.

عدت إلى منزلي أبكي... أجل أبكي على شخص لا أريده أن يغادرني... أبكي من أجل مشاعر أحبتني، لماذا هذه الحياة لا تريد سوى الانتهاء؟... لماذا هذه الحياة مؤلمة ؟، لماذا هذه الحياة قائمة على أحزاننا؟.

دعوت إلهي كثيرًا بأن أغادر هذه الحياة، أحتاج أحدًا يشعر بي فأنا لست على ما يرام منذ مدة طويلة... تبدأ مأساتي عند منتصف الليل... حيث الشتاء البارد ويزداد اكتئابي... إنه مؤلم... يتجسد أمامي على شكل أنثى باردة وحزينة تشبهني كثيرًا... لا أخافها لكن أريدها أن تبتعد لكنها تصمت فقط... تجلس جواري بملامح لا تحمل أي معنى، صامدة... هنالك ألم في أعماقي أشعر به... عندما أنظر إليها أجدها تحدق إلي... لا أدري ما الذي يحدث لي، أريد أن أنام وينتهي كل هذا... كم هو قاسي هذا الاكتئاب، يتملكنا إلى الأبد لكنني مؤمنة بأنه يومًا ما سيختفي وستعود حياتي كسابقها... هادئة.

أتى الصباح ولا أعلم بأي حال قد غادرت الليل... أعيش حياة لا أحد فيها غيري... تناولت كوبًا من القهوة... لم يكن هنالك أحد في المنزل... ذهبوا إلى حياة هم يحبونها عكسي تمامًا، ظللت في غرفتي لا أريد رؤية أحد من العالم الخارجي.

وضعت المذياع على أغنية كلاسيكية... كانت رائعة فقد أحيت الماضي الجميل بداخلي، تمنيت كثيرًا لو كنت تلك الفتاة التي لم تكبر... مشاعري الحزينة تكبر معي... في لحظات كثيرة أردت الموت... كنت مدركة بأن الحياة بها أيضًا لحظات سعيدة... تلك التي لم أرها منذ مدة... لكنها حولنا، أدركت في ذلك الصباح أننا لا نشعر بكل شيء نحبه حتى نفقده، تشجعت للمرة الأولى في حياتي وقررت مواجهة نفسي... أجل فهي تريد الخلاص كذلك فلست وحدي من يريد المغادرة، ارتديت معطفي وقبعتي السوداء وحقيبتي... فكانت بداخلها حياة... مذكرات زوجي السابق، ذهبت إلى الطبيب.

فتحت باب مكتبه وأنا منهارة... وكأن كل شعور بداخلي قد أراد الانتحار... يريد الخروج من أعماقي، قلتُ له: ((أيها الطبيب معاناتي لا تنتهي... ذلك الاكتئاب تمكن مني بشكل قاسي أريد

لكل ذلك بأن ينتهي... تلك الأدوية لا تجدي نفعًا معي وأنا امرأة تريد الموت... بإمكاني أن أنتحر لكن ذلك عكس إيماني... فقط أحلني إلى مشفى ما... فأنا لن أعود كما كنت فهذه الحياة قد آلمتني كثيرًا... وهي مستمرة وأريد لكل ذلك بأن يتوقف... أرجوك)).

لم يقل الطبيب شيئًا ما... أصابه الذهول وكأنه شعر بأنني مختلفة... أجل ذلك صحيح... ما دامت هذه الحياة لا تريد مني مغادرتها بهذه السهولة... فأنا سأنصت لها وسأنتظر موتي لكن أريده أن يحدث بهدوء كابتسامة والدتي الرقيقة... رغم مصاعبها التي لا تنتهي فقد كانت تخفيها خلف تلك الابتسامة... ابتسامة تخبرني بأن الحياة جميلة فرغم قسوتها لكنها تهتم بنا.

لست وحدي... هكذا كنت أقول في وقت ما إلى أن أدركت بأنه لا أحد يفهم ما بداخلي.

تنهد الطبيب بعمق، أشعل غليونه ونهض من مقعده وقال: ((أنتِ مختلفة عن جميع مرضاي)).

توجه إلى مكتبة صغيرة تعج بالكتب وأحضر إلي رسالة... بدا ذلك واضحًا من منظرها... وضعها أمامي وأردف: ((سأخرج قليلًا لاستنشاق الهواء وإلى حين عودتي اقرئي هذه الرسالة.

"عزيزي روبرت،

أرسل إليك هذه البرقية بكثيرٍ من الاشتياق...
لقد مضى الكثير منذ آخر لقاءٍ جمعنا، كانت السماء هادئة،
مررت بلحظات كثيرة... كانت صعبة، تأرجحت
فيها كالأرجوحة، لكنها غيرتني، أصبحتُ بعدها
امرأة قوية... ذهبت إلى أماكن لا تشبهني،
لم أكن أمتلك أي مال ولا منزل ثابت يأويني... إلى
أن استقريت في مدينة ما.. كان نساؤها يملن إلى
بيع الجسد، لم تستطع مساحيق التجميل إخفاء ذلك
الحزن... لقد دهشت من تلك الحياة... أتعلم
يا عزيزي بأنها باردة!، تجولت فيها لسنين وأصبحت مثلهن
وأخذت حزنهن... لقد بعت
جسدي... امرأة في العقد الثالث، يرددها
الزبائن دومًا، فأكون اختيارهم... كان ذلك

العالم مؤلم... مؤلم... مؤلم، استمريت فيه
لفترة طويلة... تغيرت فيه حياتي
عاشت روحي علاقات لم تكن لتنتهي
في آخر الليل كنت أبكي... كثيرًا
حاولت أن أبتعد لكنني لم أستطع،
لم يكن هنالك أحدٌ يفهمني جيدًا
غير السيدة سينثيا التي عرفتني
بعالم جديد علي يتمثل في
بيع الجسد... سكنت في
غرفة صغيرة في فندق
للعشاق... أين كنت ألتقي
بزبائني... هل ما زلت تذكر
جمالي ؟... لم يعد موجودًا
منذ أن تعاطيت المخدرات
لم أكن كباقي النساء هنا
فلقد أصبح الضعف يجتاحني
فحاولت أن أنسى

كما أن الأرق أصبح يغفو
تحت عينيّ... وتناولت
الأدوية لعل النوم يبعدني
عن هذه الحياة...
كانت الأيام تتشابه
استيقظ بعد أن يصحو
الليل، أباشر عملي
ثم أعود للنوم وهكذا...
كانت جراحي تزداد عمقًا
كل يوم... إلى أن
تعرفت بذلك الغريب
الذي أعاد إلي تلك
الابتسامة... الابتسامة
التي غادرت معك...
كانت ابتسامة مختلفة
ففي ليالي الشتاء القارسة
كنت أذهب إلى حانة

قديمة... لا اسم لها
ما زالت قائمة منذ
الحروب التي اجتاحت
البلاد في القرن الماضي
كانت تحتوي على
بيانو ذي طراز كلاسيكي
يبث من خلاله جمالًا روحيًّا
ظللت طيلة ترددي
بأن أنظر لذلك العازف
كان يرتدي قبعة سوداء
أعجبني قميصه وربطة العنق
تلك التي قد أراحها قليلًا
كان لديه حس بالأناقة
فبدا ذلك واضحًا على
بنطاله... يرتدي ساعة
تبدو غالية الثمن
كانت ظلال الحانة لا تظهر

ملامحه بشكل واضح للغاية
لكن لم نتقرب من بعض من خلال
تلك الحانة... لقد كان
يأتي إلى غرفتي كثيرًا لغرض المتعة
لم أتحدث معه قط... لكنه كان
مختلفًا... شعرت في كل مرة أقابله
بأن الموسيقى تنتقل من جسده إلى جسدي
وكأن جسدينا سيمفونية جميلة... يا إلهي
كم أنا يائسة... أحببت تلك اللحظات
التي يزورني فيها وكنت أرجو ألا تنتهي...
سقطت في إحدى المرات بين يديه
لا أعلم ما الذي حدث... فتحت عينيّ
فكان طبيب ما يفحصني... كنت وحدي
وعندما تسلمت التقارير فوجئت تمامًا
لم أصب بالإيدز وابتعد الزهري عني...
لقد كان السرطان!... ذلك المرض
الفتاك امتزج في عظامي، تسارعت

نبضات قلبيوشعرت بالهلع
فأنا لا أريد نهاية كهذه...
تقرر لي بإجراء عملية... لكن لم يتخللها
النجاح فانتهت بفقدان قدمي اليمنى
وأجريت عملية أخرى قضت ببتر القدم
اليسرى... أصبحت عاجزة !
كان من الصعب علي القيام بالأعمال المنزلية...
تلقيت رسالة من الطبيب ليخبرني
بأن المرض لا يزال مستمراً... يريد تفكيكي كدمية !
تعرضت للعلاج الكيماوي في بادئ الأمر... لكنني
تجاوزت كل تفاصيله... فأنا امرأة لدي كبرياء
فشعري هو إحدى خصائصه الجميلة وفقدانه
أشبه بانتزاع لقب الأنوثة مني
وكان الأطباء يستنزفوني
ألا يقال بأن الطب عمل إنساني؟!
إنه يا عزيزي ليس كذلك فقد كنت
وحدك ملاك الرحمة...

دفعت مبلغًا طائلًا من أجل
توفير قدمين لي... أتتصور ذلك
حاولت المشي بهما لكن لم أقدر
وتعرضت للسخرية... لم أستطع
التحرك بهما، فوضعتهما بعيدًا
عانيت كثيرًا...
بدأت أسترجع أحلامي...
تلك التي قد أهملتها... والتي
حالت بيننا الظروف، تملكني
اليأس... وظللت أحدق في
المدى البعيد... كيف سأكون؟
فأنا مررت بعوالم قاسية... لربما
عالم الدعارة أخف قدرًا لي
فلا مشاعر فيه... فقط رغبة
عزيزي... أصبحت مرهقة
فكلماتي هذه لا تخبرك عن وهني
أريد فقط أن أراك... إنني

أفتقدك بشدة...
اليوم سأجري عملية أخيرة
أخبرني الطبيب بأنني لربما أنجو
وأرجو ذلك... فلا أحد
يعلم بأن تكون حياتك على
وشك النهاية... لكنني مؤمنة
فوجود تلك الأمراض مهم
هكذا يخبرنا الخالق بأننا نحتاجه...
لقد تبقت فقط أمنية واحدة
يتمناها قلبي... أجل إنها تلك
الكلمة التي لم تقلها لي...
أحبك أيضًا... كم أودّ أن أراك
وأنت تقولها لي... كنت أحزن
عندما تبادرني وأنا أيضًا...
أتمنى أن نلتقي بعد الجراحة
إنني أقبع في مشفى المدينة العام
لطالما كنت جزءًا مني".

شعرت بالحزن... كانت مدركة بأنها لن تحيى فهكذا تقول كلماتها.

عاد الطبيب من الشرفة وعلامة متعبة رسمت على ملامحه، جلس بجواري وصمتنا فترة.

أردفت أخاطبه والفضول يعتريني: ((ماذا حدث بعد ذلك؟)).

بدا واضحًا بأن الكلمات تأبى الخروج منه واستشعرت بأن ألم أصابه حينما قال: ((قرأت تلك الرسالة وحنين إلى الماضي قد صحى... فاضت عيناي دمعًا... وتخللت أضلعي آلام، كنت أظن بأن الوقت قد جعلها تلتئم... لكنه لم يفعل، أسرعت بالذهاب إلى المشفى في مدينة "تورينتو"... استقليتُ أول قطار متجه إلى هنالك... وظللت أفكر فيها طيلة جلوسي في المقصورة، وفور وصولي... كان كل شيء قد انتهى)).

كان من الصعب له أن يسترجع تلك الذكرى، تغيرت ملامحه وأصبحت ضعيفة وظل يصف لي رؤيتها في تلك اللحظة: ((وجدتها مستلقية على سرير متنقل... اقتربت وشعرت بحزن قلبي... أبعدت الغطاء الذي وضع عليها.. لقد تغيرت كثيرًا...

وكأن هذا العالم لا يشبهها... كانت خالية... اختفى شعر رأسها، ذلك الشعر الذي مرت من خلاله نسمات حالمة، شعر أحبته... حاجبيها يأسا... وتلك البشرة التي أجمل من الحرير وأرق من حوريات البحر وتفوق روعة القمر... أصبحت شاحبة... حزنت عندما نظرت إلى تلك الإنسانة... لم تفقد قدميها فقط بل حتى روحها)).

نظر إلى الصورة الموضوعة على مكتبه وظل يقول: ((لقد كنتِ جميلة رغم ذلك المرض، أنا آسف يا عزيزتي... أردت بأن تشعري بالحب وأنا أنطقه، لكنني غرقت في ذاتي)).

بكى بصوت عال.. لقد كان ذلك الحزن حبيسًا داخله فترة طويلة.

لطالما آمنت بأن حياتنا الداخلية تتألم من تفاصيل هذه الحياة... نحن الحزناء الذي مر اليأس من ثنايانا ولا يريد الابتعاد، فلا تبدو أرواحنا بأنها بخير.

حزن الطبيب روبرت على السيدة آشلي أخبرني بأن الذكرى لا تموت وأن الدمع لا يفيض بتلك السهولة.

تحدثت وأنا متألمة على زوجته: ((أنا متأسفة يا أيها الطبيب، لا بد بأنك مدرك بأنها في مكان أفضل الآن)).

- حتمًا يا سيدة كاثرين... فالحياة لا تنتهي عند نقطة ما بل هي تستمر من المكان الذي توقفت فيه.
- اعذر كلماتي، لكنني أشعر بأنه كان من الصعب عليك أن تخبرها بمدى حبك لها.
- ربما...

غادرته بمشاعر جديدة، لم يكن للحزن نهاية قط، فحزن الطبيب لا يشبه حزني وحتى حزن السيدة كيت... نحن نتشابه في الألم... يا إلهي ما هذا التشابه الغريب؟!.

حالتي لم تستقر في تلك الفترة... كان تناول تلك الأدوية يصيبني بالإرهاق.

وشعرت باليأس من هذه الحياة... لقد حاولت أن أصمد أمامها، لكنها مؤلمة.

أصبحت لا ألقي أي اهتمام بنفسي... كنت أبدو شاحبة... كانت تمضي الليالي وأنا كما أنا، لم تتغير حياتي، وقضيت أيامي مع الوحدة... وترددت إلى هنا... "ويتلغون"، فقد اشتقت إلى تلك الذكريات التي لا تزال تشع بأرواحنا كلما مر طيفها على حاضرنا.

أتذكر رحلة زوجي السابق إلى إحدى القرى، كانت تبعد عنا بأميال... بعث إلي برسالة كتب فيها...

"إلى عزيزتي كاثرين،

أكتب لكِ هذه الرسالة وأنا أستقل
عربة... تقودها الأحصنة!
لقد دهشت من الوضع الذي تحتضنه هذه القرية
إن الركود الاقتصادي قد غير حياة العمال...
فور وصولي، قابلت السيد مارتن كان
رجلًا فاحش الثراء... وكانت السيدة كارولين
تصارع الموت، كانا يقطنان في منزل خشبي...
أخبرته بأنه لا بد من نقلها إلى
مشفى ما، لكنه لا يريد ذلك... لم يكن

يتقصه شيء، كل ما أراده بأن تشفى هنا... بجواره
لقد حاولت جاهدًا... كانت الدماء تفوح من
تلك الغرفة، التي خصصت للعملية... ولم
يكن بحوزة فريقنا الطبي أدوات حديثة...
لقد تعبت كثيرًا وأصابنا اليأس... لكن
بفضل الخالق نجت... أنا سعيد للغاية".

تذكري لهذه الذكرى في تلك الفترة ساعدني كثيرًا... كان بإمكانه بأن يكتب لي عن بقية التفاصيل فلم يخبرني بأنه وصل إلى مكان مليء بالعنصرية... وأن الجيران عندما يرونه يصفونه بأنه قرد... لم يكتب لي عن وضع القمامة أمام مسكنه.

وأولئك الأشخاص الذين عزفوا من أجله أغنية عن الاستعباد وحزن العبد على سيده... تلك العبودية التي آلمت إنسانيته.

والبائع الذي أقفل متجره منه... لم يقل أي شيء عن كل هذا لي... أخبرتني ماري، لم ينظر إلى تلك اللحظات المؤلمة، وهو كأي شخص... لديه مشاعر، لكنه نظر إلى تلك اللحظة السعيدة وكتبها لي... كان يدرك كيف له بأن يتعايش مع آلآم روحه.

❋ ❋

في يوم ما أخذت جرعة من "الكيتامين"... كنت تائهة وكانت تلك محاولة مني لانتزاع روحي... من ذلك الجسد الذي تغير، لم أدري ما الذي حدث لي.

فتحت عينيّ بتعب... كانت جين تهز جسدي والدمع يتساقط منها... من تلك العينين الرقيقة، وزوجي واقف جواري يبكي... كانت سوزان تحاول بأن تتماسك لكن دمعها لم يتوقف... كان والداي قد أرهقهما البكاء وفي ذلك الكرسي يجلس الطبيب روبرت صامدًا، جميعهم معي... كنت أنظر إليهم بنظرات فارغة... وكأنني لا أعلم من هؤلاء؟!.

تحدث مايك وقال: ((سوف تذهب كاثرين إلى إحدى المستشفيات))، ووافقه والدي أيضًا... لكن ذلك الاقتراح لم يعجب والدتي وسوزان... وظلت جين تحدق إلي بينما الطبيب لم يتحدث قط.

: ((إنها بخير... كل ما حدث لها هو من الحياة))... هكذا قالت سوزان... تلك الكلمات، التي على أمل بأنني على ما يرام.

من بينهم كان ابني دريك خائفًا!... خائفًا مني ركضت مسرعة له وقلت: ((لماذا أنت خائف؟... أنا والدتك يا عزيزي... اقترب إلي))... حضنته بشدة... كانت تلك العينان تلمعان واقتربت مني جين وأحطتها بذراعاي... لم يقوى مايك على ذلك المشهد واقترب هو الآخر... وظللت أقول: ((أجل... أنا لست بخير وأريد أن أعود كما كنت... أنا أحتاجكم)).

لم يكن من السهل علي بأن يراني من يستند على كتفي حينما يقع بهذه الحالة... لقد بكيت في هذه الحياة كثيرًا وتألمت إلى أن انهرت، وانطفأت روحي... كم هي غريبة أيامنا!، جلست وحدي نهاية ذلك اليوم فها أنا على وشك مغادرة منزلي إلى مكان آخر... كم هي قاسية هذه الحياة... لكنني مدركة بأنني بخير.

في منتصف الليل أردت التحدث مع ماري... شعرت بأنها قد تكون تتوق لرؤيتي، فذهبت إليها في تلك المشفى التي لطالما زرتها... مقر عمل زوجي السابق... أخبرت ممرضة ما بأن أرى ماري، فلم يمضِ الكثير حتى أتت إلي، اعتلى الحزن ملامح وجهها... قالت لي: ((كاثرين... تبدين مختلفة))، أجل لقد

كنت كذلك فقد قدمتُ لها بملابس نومي ولا أضع على بشرتي شيئًا يظهر جمالي... قلت لها: ((لقد قررت الذهاب إلى مشفى التأهيل النفسي.. إنني أتألم يا ماري)).

- هل تريدين الذهاب بعيدًا عن عائلتكِ؟.
- أجل... فلا أحد يعلم ما أمر به... أنا لا أريد مغادرتهم فقط، بل حتى هذا العالم... أنا لا أنتمي لهذه الحياة... أريدكِ أن تشعري بي.
- يا إلهي يا كاثرين أنتِ حزينة.

حضنتني... لقد أحست بألمي... ابتسمت ثم أكملت حديثها: ((أنتِ إنسانة... صحيح ستشعرين في كثير من المرات بالحزن، لكن تلك الحالة المؤلمة تذكرنا بكم كنا سعداء... سأخبركِ بقصة ساعدتني كثيرًا... لقد عشت في هذه الحياة وحيدة، كنت دومًا أجول في عالم غريب، ليس كذلك الخيال الذي تسكن داخله أي طفلة في عمري... كنت محاطة بزجاجاتِ الكحول... وأجود الأنواعِ من الممنوعاتْ... كان والدي لا يحبني، لكنه لم يؤذيني جسديًا، لكنني أحسست بالتعب من ذلك الوضع... عند عودتي من المدرسة أجده فاقدًا للوعي... جراء ليلة أراد بأن

ينسى نفسه فيها... ولم تختلف والدتي عنه قط... كانت تتعاطى المخدرات، تريد هي الأخرى بأن تعيش في مكانٍ آخر، لم أعرف ما الذي يعنيه بأن تمتلك دمية كي تلعب بها... تلك الحياة لا تشبهني... إنها لا تشبهني... حتمًا إنها لا تشبهني)).

قالت تلك العبارة وهي تعيش في داخل تلك الذكرى، كم هي قوية... لقد تغيرت حياتها... تجاوزت كل تلك الصعاب وأصبحت طبيبة، لم يكن من السهل عليها بأن تعيش تلك الحياة المؤلمة... كنت أبكي وأنا مرتمية في حضنها وقلت: ((وجودكِ في عالم الدعارة... هل تجاوزتيه؟)).

- بالطبع تجاوزته... لم أكن لأسمح لنفسي بأن نتوقف عند تلك الفترة، فلا شيء يبقى.

تنهدت وكأن آلامها تساقطت كأوراق الخريف ثم أردفت قائلة: ((لا أحد يريد حياة كتلك.. لكن الظروف قاسية.. لطالما كان زوجكِ السابق جواري.. في آخر يوم رأيته فيه كان مختلفًا.. أتذكر بأنه طرق الباب، وكان تيم يضع الطعام... قال لي "تعالي هنا... لست بخير يا ماري... لقد تغيرت كثير من الأشياء، لا أدرك

شيئًا، قبل فترة... ظللت طيلة المساء أبحث عن مسكني!، صادفت أحد الأشخاص، قلت له أتعلم أين هو منزلي؟!، هنالك خطب بي... أصبحت أنسى كثيرًا... لم أعد كما كنت، أريدك أن تكوني معي... لا تكوني كالآخرين... تركوني وحيدًا")).

- ماري... هل سأموت أنا أيضًا؟.
- عزيزتي كاثرين... لا تزالين بخير، لا أحد يعلم متى ستنتهي الحياة.
- أنا أحبكِ.
- وأنا أحبكِ أيضًا يا عزيزتي.

خرجت من عندها على أمل مني بأنني سأعود إليها كما عرفتني دائمًا... تلك المرأة الرائعة.

استقليتُ سيارة أجرة، كنت مؤمنة بأن الحياة ستؤول إلى الأفضل فتلك اللحظات البائسة لا تستمر... طلبت من السائق أن يذهب إلى بحيرة كانت تقع على أطراف المدينة... لدي الكثير من الذكريات معها... عشت فيها جزءًا من طفولتي.

عند وصولنا... نظرت إلى الأرجاء... فوجدتها ككل شيء في هذه الحياة... لقد تغيرت هي أيضًا، كانت وحيدة لا تكتظ بالناس... وقفت وصرخت، وصرخت مشاعري معي، وصرخت روحي "لن أموت وحيدة"... شعرت بأن هنالك ثقل سقط من على قلبي، وعاد إلي ذلك الشعور... إنها السعادة وأمتلئ داخلي بالدفء... ومضينا من عند البحيرة.

خلال ذهابنا من البحيرة مررنا بجانب تلك المتاجر المزينة بلافتات النيون المضاءة، إنها أشبه بتلك الأرواح التي تبكي ليلًا... عند منزلي... عدت بروح مختلفة، كانت أمسية مبهرة.

جلست في المقاعد التي توجد في فناء المنزل وقرأت مذكرات زوجي السابق...

أصبحت وهن للغاية، ابتعدت عن قراءة الكتب، وتوقفت عن الذهاب إلى العمل، وغادرت روحي... لم أعد أقوى على النهوض... هنالك يأس أصابني، لم تعد هذه الحياة تهمني... عندما أنظر للمرآة، أرى ذلك الشاب... بقصته الجذابة وتلك الابتسامة، التي تخبرك بأن الحياة على ما يرام وملابسه التي تواكب الموضة... إن روحه منتعشة، إنه يشعر براحة داخلية،

بعيدًا عن ضوضاء العالم، يا إلهي... كم هو يافع، لديه الكثير ليقدمه في هذه الحياة... وخلال لحظة ما أعود للواقع فينعكس أمامي رجل قد آلت به الحياة كثيرًا إلى عمق الألم... بذلك الشعر الذي يغطي بعضًا من ملامح وجهه، وتلك الملابس التي تعود إلى حقبة القرن الماضي... لا يكترث لنفسه، لقد تغيرت حياتي كثيرًا وألمي يكتب كلماتي هذه... كانت لدي أحلام ولطالما حادثت نفسي بأنني سأنجز الكثير، فلن أغادر هذا العالم دون أن يعرفني... كنت أصف نفسي دومًا بأنني أتعلم من الحياة... إن الحياة صعبة فهي لن تكون بتلك البساطة... فأنا الآن تملكني النسيان... فكل تلك الأشياء التي كافحت من أجلها وذهب جزء من حياتي معها قد تناثرت من رأسي فلم أعد أعرف حتى من أنا!... وتباطأت نبضات قلبي وتنفسي أصابه الضعف أيضًا... لا أريد من أحد بأن يتحدث عني في جنازتي فقط اتركوا روحي بأن تحي بسلام... فلقد أرهقتها الحياة".

وضعت مذكرات زوجي السابق بجانبي وظللت أفكر في تلك الروح...

أتذكر بعد أن أخبرني الطبيب بالروح، قرأت عن عالم الأرواح كثيرًا... كنت مدركة بأن الروح تنفصل عن الجسد عند نقطة ما تسمى الموت... إن الروح هي التي تتحكم بالجسد، فلذلك فإن الجسد لا يدوم ويصاب بشكل واضح، أما الروح فهي لا تفنى.

إن ألم الروح مختلف، فعندما يصيبها شيء ما، فإنها تسيطر على سلوكياتنا بطريقة غريبة وينتج من خلالها حالات متعددة.
وكذلك التلبس، في بعض الأحيان تغيب الروح عن مراكز السيطرة في العقل فيصبح الشخص في مرحلة اللاواعي، وهنالك أكثر من أمر، فإما أن يتقمص الجن الإنسان في تلك المرحلةوهي المعروفة لدى الجميع، وإما أن يصنع الخيال شخصية في تلك المرحلة.

لا أحد يستطيع السيطرة على الروح، وكل تلك اجتهادات شخصيات علمية فهي بأمر الخالق وهو يعلم عنها كل شيء فقط نحن نحاول أن نعرف ماهيتها، لكن ذلك مستحيل... فعالم الأرواح يفوقنا.

ذهبت للنوم وأنا مطمئنة، كان مايك بجواري يبتسم، وخيل إلي بأنني تلك الفتاة التي جعلته يفرح.

استيقظت مساءً، لم يكن هنالك أحد في المنزل غير تلك الخادمة التي أحضرتها عائلتي لرعايتي فكان زوجي منهمكًا في عمله وابني المنغمس في رياضة كرة السلة أما جين فهي على وشك الحصول على الرخصة... ستصبح صحفية.

أتذكر قدوم جين إلي بعد لحظات من أمر ارتشافي لكوب من القهوة... أخرجت لي من الخزانة بنطالًا من الجينز وسترة شتوية ومعهما صندلًا، ارتديت ما أحضرته لي وطلبت إلي الخروج برفقتها...

استقلينا سيارتها وتحركنا...

قلت لها بتردد: ((جين... أتعتقدين بأنني لست بخير؟)).

- بالطبع أنتِ بخير.
- لماذا كنتِ تبكين في ذلك اليوم؟... لقد كنتِ مختلفة.
- خشيت أن أفقدكِ.. فهذا العالم الكبير يصغر من دونكِ.

نظرت إلى النافذة، كنت لا أريدها بأن ترى ذلك الحب في عينيّ... عليها أن تعرف بأن العالم يتغير، قلت لها: ((لقد فقدت والدكِ وحياتنا الزوجية أنا ومايك كانت على وشك الانتهاء... كما أن السيدة كيت قد غادرتني، كان الجميع يبتعد عني، فاحتضرت علاقتي بأي شخص مقرب مني... لكنني سأتشبث بأي شيء يجمعني بكِ يا جين... فأنتِ جزء مني)).

ابتسمت ثم قالت: ((كان والدي يحبكِ حقًا... أنتِ شخص ملهم هكذا كان يخبرني... لقد تعلمت منه هو ومايك ومن السيد تيم الكثير، لطالما كانت السيدة ماري لطيفة معي... أعلم بأنكِ مدركة للحياة كثيرًا فلقد عشت أبعاد فيها، لم أصلها قط، فبرغم الأسى الذي بين طياتها هنالك سعادة أيضًا)).

توقفنا عند إشارة مرور، كنت أنظر للشارع... كان المارة منشغلين بحياتهم اليومية... قلت لها: ((هل تعيش الأقليات هنا؟)).

- أجل، فهذه المنطقة ذات تكلفة منخفضة.

شعرت بالحزن على أشخاص لا أعرفهم، إن حياتي الآن تؤلمني... لكن ربما ألمهم متعب.

وصلنا إلى مطعم إيطالي... كنت منبهرة من جماله الداخلي كطفلة تشاهد تلك السماء المليئة بالنجوم... جلسنا على طاولة تطل على تلك الغرفة التي تُعزف سيمفونية هادئة، طلبنا المكرونة... كان المكان مكتظًّا بالنبلاء، تبسمت على ذكرى مرت أمامي ثم قلت لجين: ((أنا محامية عظيمة كما تعرفين، أتذكر بعد يوم عمل شاق، كنت أتناول الطعام في أماكن كهذا المطعم... لدي الكثير من لحظات السعادة التي تعيد بسمتي من بين مآسي الحياة)).

- حسناً... إن هذا اليوم مميز، لقد حصلت على رخصتي.
- هل أصبحتِ صحفية؟.
- أجل... فلا توجد طريقة للاحتفال أفضل من أن تكون معكِ.
- عزيزتي أنا فخورة بكِ، لطالما كنتِ مميزة.

حضنت جين بمشاعر تملأها الطمأنينة فلقد كبرت ابنتي... وذلك شعور لا يعيشه معظم الأشخاص... بأن ترى نجاح طفلتك أمامك.

أحضرت النادلة طلبنا وغادرت...

قالت لي جين: ((سأخبركِ بقصة اختياري لهذا المجال... لقد كان والدي جراحًا كبيرًا يشيد به الجميع... كان يوجد الكثير من الأشخاص مثله لكنه كان مختلفًا في جوهره فبرغم براعته ومهاراته العالية لم يحصل على أي أوسمة... في إحدى المرات خلال زيارتي له، رأيت جدارًا به أرفف، تعج بمؤلفاته، وأبحاثه الطبية، ورسالاته في أمراض القلب... من المعروف بأن العالم مليء بالعظماء لكن لم يكن أحدهم عظيمًا كوالدي... فعندما أكون معه أكتشف الكثير عن نفسي... إنه شخص مميز للغاية،وذلك الإنجاز المبهر ألهمني بأن أتبع رغبتي)).

- هل تشعرين بالحزن عندما تتذكريه؟.

صمتت لفترة وبدأت عيناها تمتلئان بالدمع وقالت: ((أجل أشعر بحزن مؤلم... لم أقضِ الكثير من الوقت معه، وأردت بأن أعيش بقية حياتي معه... كان في صمته حديث، لكنه غادر... ولم يقل لي حتى وداعًا، لقد ساعدني كثيرًا وأنا شاكرة له)).

- أتعلمين يا عزيزتي، عندما أراكِ أشاهده... صحيح لونكِ مختلف عنه وكذلك شعركِ ووجهكِ الذي يشبهني، لكن روحكِ نقية مثله، مثابرة، ومبادرة... أشعر بالفرح بأنه يومًا ما كان جزءًا من حياتي.

تناولتُ القليل من طبقي ثم قلت: ((لقد مررت بكثير من تلك اللحظات السعيدة... لقد عشت طفولة رائعة... حضيت بكثير من الألعاب والحبونلت الكثير من التقدير في صغري، فما أن نكبر... نجد بأن كل تلك المميزات تقل ونبدأ بالخروج إلى العالم وننساها ولربما هي التي تبتعد عنا... وسوف نشتاق لتلك الذكريات، فيخبرنا عقلنا الواعي بأن ما مضى لا يعود، لكن ذلك الأمل الداخلي ما زال على يقين بأن السعادة والحزن مجرد مشاعر تختلف في كل شخص منا... فأنا مؤمنة وأعمل بجد وعاشقة للأحلام، لذلك لن أجعل تلك المشاعر تحدد حياتي...

فأنا امرأة يقوم من خلالي مجتمع كامل فالمشاعر ليست سوى جزء من تلك الحياة التي نعيشها)).

- هل تمنيت من قبل لو عشت حياة أخرى؟.
- أجل لقد أردت بأن أحيي حياة مختلفة... أردت بأن أحلق إلى أرض من خيال نسج من قطرات الندى... أردت بأن أكون في عالم آخر، حيث لا صراعات داخلية.

حاولت أن أتماسك أمامها، فلطالما كنت تلك الأنثى القوية، خرجت الكلمات من داخلي تبكي وقلت: ((عاش والداي حياة هادئة... كانا متفاهمين للغاية وكل منهما يدرك احتياجات الشخص الآخر... إنهما يكملان بعضهما، أنا سعيدة لوجودهما بجانبي في كثير من الأحيان... وتلك الحياة التي كانت ساحرة بين سوزان وزوجها فقدت بريقها فقد وصل كل شخص للاكتفاء وذلك الأفضل لأسرتهم... أما أنا فقد كنت مختلفة... لم أكن أعلن ماذا أريد لنفسي!، أصابني الإرهاق من هذه الحياة، لكن عندما أنجبتكِ... شعرت بأن الحياة تتفتح لي،

وأنني أحمل جزءًا مني بين يدي... لا شيء يضاهي الأمومة، فأنا شاكرة لكثير من اللحظات)).

- أريد أن أكون فتاة ملهمة لكثير من الأشخاص... أنا سعيدة بما آلت به حياتي... إنني أتعلم من هذا العالم في كل يوم أكون فيه بالخارج... أتذكر جلوسي مع دريك في إحدى الليالي الرائعة، لم أكن أدرك بأنه شخص رائع، لديه الكثير من الأحلام.
- إن الطعام لذيذ للغاية... كنت أشعر وكأنني لم أتناول أي شيء منذ مدة، شكرًا لكِ يا جين.
- فقط آمني بأنني سأظل بجانبكِ دومًا.

تحركنا من المطعم إلى المنزل... كان الجو بهيجًا، شعرت بالحب... كنت سعيدة للغاية، أحسست بأن حزني يتلاشى... تمنيت لو أن تصبح حياتي كتلك الليلة.

۞ ۞

هنا في "ويتلغون" لا تزال الموسيقى الهادئة كما هي وتلك الفتاة الجميلة منغمسة في عالم آخر... إنها تستمع للعزف وبدا لي وكأنها تحلق في الخيال وترسم ابتسامة من حين إلى آخر، شعرها الأشقر يزيدها روعة، إنها مميزة، تشعرني وكأن العالم لحظة.

تعود بي الذاكرة إلى مشفى التأهيل النفسي، استقليتُ السيارة رفقة عائلتي... مايكوجين وابني دريك، ووالداي وسوزان... وأنا.

استقبلنا طبيباً ذا ابتسامة خلابة، جلسنا على المقاعد وكان مايك يتحدث معه، ثم قدم إلينا وقال: ((حسناً يا عزيزتي هذه الممرضة ستعتني بكِ))، وأشار إلى فتاة أبهرني جسدها كانت تشبه عارضات الأزياء اللاتي يظهرن على أغلفة المجلات...

كان اسمها فيكتوريا... كان شعرها حريريًّا وكأنه خلق من أجل ذلك الوجه الجميل، كان زي التمريض رائعًا... ترتديه بشكل يصف أنوثتها.

لم تكن فيكتوريا كالممرضات الأخريات فهي رقيقة للغاية... قالت: ((أهلًا بكِ سيدة كاثرين أنا فيكتوريا... وستكونين رفيقتي)).

- أنا سعيدة بكِ.

ابتعدت عن عائلتي برفقة فيكتوريا والدمع يتساقط من عينيّ... لم يكن من السهل علي أن أترك من أحب، لكن الحياة هكذا... ففي طياتها نتعلم الكثير.

وصلت إلى غرفتي... نظرت إليها بشكل واضح، كانت تحتوي على سرير به غطاء، وهنالك في الطرف توجد خزانة للملابس ومكتب خشبي صغير به كرسي ورف يحمل اللون البني، ونافذة تطل على حديقة المشفى... تركتني فيكتوريا، كي آخذ قيلولة.

بعد الظهيرة أتت فيكتوريا وبرفقتها ذلك الطبيب ذو الابتسامة الخلابة، أحضر لي بعض الأدوية وطلب إلي تناولها لفترات محددة نظرت إليها جيدًا وتحادثت معه بشأنها... فأبعدت المهدئات مني... فحالتي لا تتطلب تناولها... تعجب من معرفتي الواسعة بها، لكنني أخبرته بأنني قد تزوجت طبيبًا من قبل.

في المساء، قرأت مذكرات زوجي السابق... كتب...

في كثير من الأحيان يتملكنا اليأس... فنشعر بالضعف وأن الحياة استصعبت علينا، فدائمًا ننظر إلى ذلك الجانب المحزن... فنعيش داخل آلامنا، ويتخلل الاكتئاب وهنا فيغرق الشخص في أعماقه... وننسى بأن هنالك حياة أخرى على الجانب المشرق، ونبتعد عن الذات...

لكن ماذا عن الفرح؟!، أليس لدينا نصيب منه!، إننا نملكه أيضًا لكننا جعلنا من مشاعرنا الحزينة بأن تحركنا ولم نترك للفرح أي مجال بأن يكون جزءًا منا...

إن الحزن جيد فهو بطريقة ما يقودنا إلى الفرح، فلطالما كانت المشاعر مكملة لبعضها، لقد كنت أتخبط مع نفسي كثيرًا وعشت حياة مليئة بالآلآم... ولقد يأست واعتراني ذلك الشعور بأن حياتي ستكون هكذا، وتعايشت مع ذلك الواقع، لكن في إحدى المرات نظرت إلى نفسي بعمق ورأيت بأن اليأس أصبح يظهر علي بشكل واضح وقررت بأن أنظر إلى ما يسعدني... وعندها لاحظت بكم أنا شخص محظوظ...

إن التغيير لا يحدث من الخارج للداخل بل يحدث من الداخل للخارج... فذلك هو جوهر هذا العالم".

ابتسمتُ فتلك الكلمات كانت تخاطب روحي... شعرتُ بالتفاؤل من غدٍ جميل، فبرغم ما هنالك حزن فهنالك فرح... طُرق الباب ودخلت فيكتوريا، طلبت إلي بأن نتجول في الحديقة... كان الجو باردًا، شعرتُ وكأن المشفى تقع في مكان آخر، ليس من هذه المدينة.

قالت لي: ((تشعرين بالغرابة من هذا المكان، أليس كذلك؟)).

- أجل... فالطقس باردٌ هنا، والجميع غرباء وكأنني من عالم آخر.
- كل شخص يعيش حياة بداخله سيدة كاثرين.
- أراكِ سعيدة يا فيكتوريا... كيف تكونين بتلك السعادة والحزن يُملئ المكان؟!.
- لا تحتاجين للكثير كي تحسين بالسعادة فعندما أنظر لحياتي مقارنة بحياة المرضى... أشعر بالامتنان.

- كان زوجي السابق مثلك تمامًا... أتذكر مساعدته لكثير من الأشخاص... كان سعيدًا للغاية... إنه طبيبٌ أيضًا.
- كم هو رائع عندما ترسم الابتسامة على وجه الآخرين.
- متى تعودين إلى منزلكِ؟.

نظرت إلى ساعتها ثم أردفت: ((ليس الآن... عند منتصف الليل)).

كانت فتاة طيبة... شعرتُ بأن عينيها تلمعان فرحًا... لديها شخصية رائعة.

عدتُ إلى غرفتي ومشاعري دافئة، كأنني طفلة تحتضن دميتها.. قلت لها: ((شكرًا لكِ يا فيكتوريا)).

- عفوًا سيدة كاثرين.

تركتني أغط في نومٍ عميق.

۞ ۞

مضت الأيام وشعرتُ بأنني مختلفة للغاية عن الفترة الماضية فكنتُ أمارس الرياضة، أقرأ الكتب، أرسل خطابات لعائلتي والتي كانت تزورني من حين إلى آخر... كنتُ أعود إلى حياتي السابقة... تلك المرأة المميزة، لقد اشتقتُ إلى تلك اللحظات التي كنتُ فيها أعيش براحة.

خلال وجودي في المشفى اكتشفت جانبًا آخر من شخصيتي كنتُ هادئة وتلك الصفة لم ألحظها قط... فلم أعش الآمي بشكل غريب... كان حزني لي، كنتُ أدرك جيدًا بأن أعماق روحي تبكي... لكنها حتمًا ستنتهي فلا شيء يدوم.

كما أخبرني الطبيب ذو الابتسامة الخلابة بأن خروجي من المشفى بات قريبًا ... كان الجميع لطفاء معي... كما أنني أصبحتُ مستعدة للعودة إلى عملي وأسرتي... وحياتي، كان الفخر يعتريني... فأنا على وشك بأن أتجاوز تجربة عصيبة مرت علي... لكنني تعلمتُ منها الكثير.

في يوم ما قابلتُ فيكتوريا في الأرجاء قالت لي : ((حسناً إنكِ على وشك الخروج سيدة كاثرين)).

- أجل... أنا متحمسة للغاية.
- لقد قرأتُ الكثير عنكِ... لم أعلم من قبل بأنكِ محامية مشهورة.
- أنا جيدة في عملي فقط.
- سيدة كاثرين... سأخبركِ قصة من الماضي... كنت أعيش برفقة والداي في كوخ خشبي في إحدى الغابات فقد كان والدي عالم آثار ووالدتي مساعدته، لقد تجولا في هذا العالم كثيرًا وذاع صيتهما... لكن بعد ولادتي توقفا عن كل ذلك، واستقرينا عند ذلك الكوخ الخشبي... لكن اختلفت الحياة كثيرًا وامتلأ ذلك الكوخ الخشبي... بالأرواح، لم تكن تريدنا بأن نعيش هنا... فحاول والدي حمايتنا، فألقم بندقيته.. وفجأة بطريقة ما أطلق النار على والدتي !وماتت ومات هو الآخر... فكان الموت المجهول عنوان تلك الحياة التي لم تبصر أمام ابنتهما. كنتُ صغيرة للغاية، ترعرعتُ في ملجأ وكبرت ولم أتذكرهما قط.

وضعت أمامي صورة لها معهما وصدمت للغاية... وشعرتُ بالثقل يصيب جسدي وقلت: ((إنهما السيد كيليان والسيدة كيت... وأنتِ!)).

- أجل... أعلم بحجم الصدمة التي أصابتكِ.
- أأنتِ حقيقية... أم كوالدتكِ؟.
- أنا مجرد خيال... روح... ذكرى، لا أعلم حقًا لكنني متُّ أيضًا منذ سنين.
- لماذا تظهرون لي فقط؟!.
- نحن لا نظهر عليكِ، إنه عقلكِ... كنتِ في حالة تتألمين فيها وأردتِ من أحدهم بأن يفهم ما تمرّين به وهكذا أتيناه.
- وكيف ستبتعدون عني؟.
- عندما تريدين ذلك... ففي مرحلة ما كان هنالك جزء بداخلكِ لا يريد رؤية والدتي وفعلتِ... وعندما نختفي فإننا لا تعود أبدًا.
- لقد ساعدني وجودكم في حياتي كثيرًا... أتمنى بأن تظلي بخير.

واختفت من أمامي وظللتُ أنظر في أنحاء الغرفة وعندما خرجتُ كي أراها وجدتها لم تعد هنا... وأخبرني ممرض ما بأنها غادرت ولن تعود.

❁ ❁

لم أعرف من هم لكنني سعدتُ للغاية لأنهم أروني جوانب كثيرة لم أكن أعرفها وحزنتُ على فراقهم...

فتلك العائلة توجد داخل كل شخص منا... فنحزن لحزنهم ونفرح لفرحهم.

لقد علمت بأن الحياة كبيرة في كل شيء وأن تلك العوالم التي داخلنا بها عالم آخر نعيشه وحدنا بشكل مختلف عن الآخرين.

لقد عشتُ حياة مليئة بالمغامرة... خضتُ تجارب جعلت شخصيتي رائعة... فاليوم أنا أكتب مذكراتِ هذه بحزنِ الماضي وفرحه.

لم تكن الحياة سهلة قط، فبقدر اللحظات التعيسة التي اجتاحتني فلن أنسى تلك اللحظات السعيدة، فأنا شاكرة لها.

لا أعلم حقًا إن كانت السيدة كيت حقيقية أم مجرد خيال... صنعه عقلي، لكنها أعطتني الكثير، فلقد علمتني ما الذي يعنيه الألم؟...

لقد أصبحت جزءًا مني وأنا سعيدة للغاية لأنها يومًا ما كانت برفقتي... لقد كانت ملهمة لي... ففي كل شيء يجري لي أتذكرها فهي ذلك الشعور الذي يرافق الحزن والفرح والأمل والراحة.

فكم أنا مسرورة على تلك الفترة فلقد أحيت جوانب كنتُ قد أهملتهاوجوانب قد أكملتُ تحسينها... وجوانب أسعدتني كثيرًا... فحقًا إن الحياة لحظة، فقط عشها كما تريد وتذكر بأن تكون الابتسامة رسالتك للحياة... ولنلتقي تحت سماءٍ أخرى.

بقلم.. كاثرين باترك.

تمت